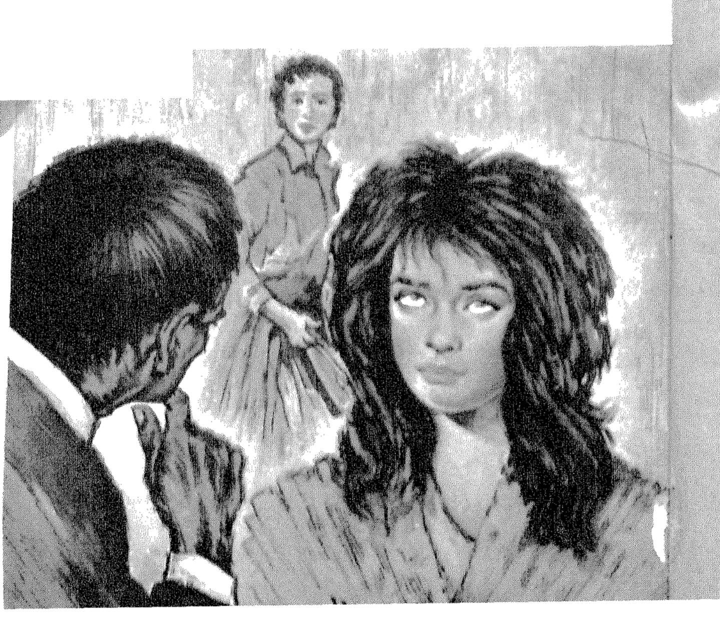
روايات الهلال

سيمفونية الرعاة

أندريه جيد



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة .. دار الهلال

العدد ٣٥٣ ــ مايو ١٩٧٨ ــ جمادى الاولى ١٣٩٨
No. 353 — May 1978

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما • عن الكميات المرسلة بالطائرة ــ فى سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشا ، فى الاردن ٢٠٠ فلسا ، فى العراق ٣٠٠ فلسا ــ فى الكويت ٣٠٠ فلسا ــ فى السعودية ٣ر٥ ريال سعودى

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا ــ فى سائر انحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢ر٥ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • وفى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية • والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ــ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
التليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنان
احمـــــد الوردجى







دار الهلال

اللوحات الداخلية بريشة
الفنـــانة سميحة حسنين

أندريه جيد والقصة النفسية

ولد اندريه جيد بباريس فى عام ١٨٦٩ ، وتوفى فى عام ١٩٥١ ، وكانت « الأغذية الأرضية » أولى قصصه ، ونشرت فى عام ١٨٩٧ ، وسنه ٢٨ عاما ، وتلاها نشر « بروميـدته » فى عام ١٨٩٩ و « اللا أخلاقى » فى عام ١٩٠٢ ، و « عودة الابن الضال » فى عام ١٩٠٧ ، و « الباب الضيق » فى عام ١٩٠٩ ، و « ايزابيل » فى عام ١٩١١ ، و« كهوف الفاتيكان» فى عام ١٩١٤ ، و« السيمفونية الرعوية » فى عام ١٩١٩ ، و « المزيفون » فى عام ١٩٢٦ ، و « مدرسة النساء » فى عام ١٩٢٩ ، و « الأغذية الجديدة » فى عام ١٩٣٥ ، و « تيزيه » فى عام ١٩٤٦ ...

ونشرت له ايضا مجموعة مقالات ، ومذكرات ، وكتابات سياسية عن الاتحاد السوفييتى والكونغو ، دافع فيها عن الحريات . وله مسرحيات منها « شاول » التى كتبها عام ١٨٩٧ ، ونشرت عام ١٩٠٣ ، و « الملك كاندول » فى عام ١٩٠٥ ، و « أوديب » فى عام ١٩٣٢ ...

* * *

واندريه جيد احد قطبين بارزين للقصة النفسية فى فرنسا ، واول هذين القطبين هو « مارسيل بروست » (١٨٧١ — ١٩٢٢) صاحب العمل الروائى الضخم الشهير« البحث عن الزمن الضائع» ..

وقد تميز « بروست » بغوصه فى ماضيه ، وتصوير هذا الماضى نابضا حيا ، كى يستعيده ويعيش فيه منغلقا عن حاضره .

اما « اندريه جيد » فيناضل — على العكس — للتخلص من ماضيه . وجميع أعماله تدور حول محور مشكلة واحدة : كيف ينبغى لنا ان نعيش؟ وماهى القيم الجديدة التى نعيش بها ولها ؟

وكان هذا بعينه هو السؤال الذى يوجهه الجيل الجديد فى

فرنسا — بل فى أوروبا كلها — لنفسه غداة الأزمة التى قلبت الحضارة فى سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . وهذا جانب كبير من السر فى النفوذ الكبير الذى تمتعت به كتابات « اندريه جيد » .

ولا يمكننا أن نعرف طبيعة هذا النفوذ الكبير الا اذا عرفنا مزاجه النفسى وما طرأ عليه من تطور ...

ولد « اندريه جيد » لأسرة من فقهاء القانون البروتستنت ، وتولت تربيته امه المعروفة بصرامتها ، ولذا طبعته هذه النشأة على الاهتمام طيلة حياته بالمسائل الأخلاقية . ثم اقتضت دواعى الصحة أن يقيم فترة فى الجزائر ، فاذا به يتحرر هناك فجأة من هذا المناخ المصطنع ، ويكتشف طبيعته الحقيقية ، وهى الشهوة الحسية التى لا حد لها ، ولذا سعى الى هدم كل الضوابط التى تقهر المرء ، من الدين الى الأخلاق ، بيد انه احتفظ مع هذا — ويا للتناقض ! — بالحنين الى النقاء والطهر ، والأمل فى ان يتمكن يوما ما من التوصل لمصالحة بين « السماء والجحيم » ، او بين محبة الله ومحبة المخلوقات .

واكسبته قراءة « دستويفسكى » ، واكتشافه نظريات «فرويد» فى التحليل النفسى تدعيما لملكة النقد لديه ، فاعلن ان حقيقتنا تكمن فى تلك الغرائز التى تكبحها التربية وتكبتها فى أعمق أغوارنا ، فان لم تجد متنفسا لها سممت منابع الحكم العقلى . وهكذا تتحول الأخلاقيات الظاهرية الى نفاق ورياء ... ولذا نادى بالاستجابة الصريحة لدوافعنا الحيوية ، ولو أدى ذلك الى الفضيحة ! ويعتقد انه ربما ظهرت فى هذا الاطار الصريح شعلة عبقرية .

هو اذن ضد الانقياد للأخلاقيات الشائعة . بل هو ضد كل انقياد من جانب الفرد للتيار العام انقيادا اعمى . ولكنه مع هذا احتفظ فى تكوينه النفسى بتيار متدين ، وهذا هو السر فى معظم أعماله لاستشهاده فى كثير من المواضع بالانجيل .

وشخصيات رواياته يتنازعها هـذان التيـاران : تيار التحرر الفردي المتمرد على القوالب ، وتيار الدين المسيحى . فكيف لا تكون قصصه من النوع النفسى الذى يصور حيرة الانسان وصراع هذين التيارين فيه ؟

* * *

وفى هـذه القصة : « السيمفونية الرعوية » يدور الصراع بين الحب الحسى وبين المحبة المسيحيـة الروحية ، وما تمليـه من احسان ورحمة ...

واين يدور هذا الصراع ؟

يدور فى نفس قس بروتستنتى شديد التدين ، تعرض له الغواية فى شخص صبية عمياء شبه خرساء يتيمة ، هو الذى علمها الكلام والقراءة ، وثقفها . انها اشبه «ببجماليون» أخرى كالتى تصورها « برنارد شو » . انه هو الذى حولها من خامة غفل لا معرفة لها ولا احساس بالحياة ، الى كائن شـديد الحساسية ، يجيد الموسيقى ، وتكشفت عن جمال فائق .

وهكذا تسربت الغواية ونما الحب بينهما كأقوى ما يكون .

ولكن الفتـاة لم تعرف الصراع الذى عرفه القس الكهل ، الذى تسلل الحب الحسى اليه تحت قناع الرحمـة المسـيحية والمسئولية الدينية .

* * *

صورة بارعة من ادب « اندريه جيد » ، تقدمها هذه السيمفونية الرعوية ، بأسلوبها الموسيقى ، واتقانها الأسطيطيقى الذى اشتهر به هذا الكاتب الذى عبـد الجمال وعاش للفن ، ولم يكن مضطرا للتكسب بفنه .

وهو يستعير للعنوان هذا الاسم المشهور فى عالم الموسـيقى ، ويتلاعب بمدلول كلمة الراعى باللغة الفرنسية ، حيث تدل على رعاة الأغنام فى الخلوات ، وعلى القسوس البروتستنت .

وما أكثر ما فى الرواية من ارتياد الخلوات ، ومن موسيقى الطبيعة . وبطلها ذلك « الراعى » الدينى أيضا ...

واننا لنعرف أنفسنا حين نطالع القصص النفسى ، ونرى عناصر تكويننا فى صور الآخرين ...

دكتور نظمى لوقا

الكراسة الأولى



١٠ فبراير ـــ ١٨٩

الثلج الذى لم يكف عن التساقط منذ ثلاثة أيام يسد جميع الطرق . لذا لم أتمكن من التوجه الى ناحية « ر ... » ؛ حيث تعودت منذ خمس عشرة سنة أن أقيم الشعائر الدينية مرتين فى كل شهر . ولم يتجمع فى هذا الصباح الا ثلاثون مؤمنا فقط فى بيعة « لابريفين » .

وسأستغل الفراغ الذى يفرضه على هذا الاحتباس القسرى كى أعود الى الوراء وأروى هنا كيف انقذت الى آلعناية بأمر «جرتريد».

وقد عزمت على أن ادون فى هذه الصفحات كل ما يتعلق بتكون ونمو وتطور هذه النفس التقية ، التى يلوح لى اننى لم أخرجها من ظلمات الليل الا للعبادة والمحبة . تبارك المولى القدير الذى عهد الى بهذه المهمة .

* * *

حدث منذ سنتين وستة أشهر اننى كنت عائدا من قرية شو ـــ دى ـــ فون ، واذا بصبية صغيرة لم اكن اعرفها تأتى بكل سرعة كى تذهب بى الى مكان يبعد مقدار سبعة كيلومترات عن ذلك الموضع، كى أقف على فراش عجوز مسكينة تجود بأنفاسها الأخيرة.

ولم يكن الحصان قد حل من المركبة ، فأركبت الصغيرة فى العربة ، بعد أن تزودت بفانوس ، لأننى قدرت انه لن يتيسر لى العودة قبل هبوط الليل .

وكنت احسبنى اعرف تمام المعرفة جميع أنحاء ابروشيتى ، بيد ان الصغيرة مضت بى ـــ بعد ان اجتزنا ضيعة « لاسودرى » ـــ فى طريق لم يكن لى به قبل ذلك الحين سابق عهد . ولكنى ـــ مع هذا ـــ عرفت ، على مسافة كيلومترين من هناك ـــ بحيرة صغيرة على اليسار ، كنت وانا صغير اذهب للتزحلق فوقها حين

تتجمد ، فى بعض الأحيان. ولم أكن رأيتها منذ خمس عشرة سنة ، لأن الواجبات الرعوية لم تدعنى الى الذهاب فى هذا الاتجاه . ولذا لم يكن بمقدورى أن أحدد موضعها ، وقد كففت عن التفكير فيها ذلك الأمد الطويل ، حتى لقد خيل الى عندما رايتها فى اهابها الذهبى والوردى الذى القاه المساء عليها ، اننى لم اشاهدها من قبل الا فيما يراه الحالم .

وكان الطريق يساير مجرى الماء الذى يتدفق من هذه البحيرة الصغيرة ، ويشق طرف الغابة ، ثم يحاذى منطقـة يكثر فيهـا الطحلب . ولم اكن ــ عن يقين ــ اتيت من قبل الى هذه البقعة.

وجنحت الشمس للغروب ، وطفقنا نسير منـذ وقت طويل فى الظل ، عندما اشارت مرشدتى الصغيرة بأصبعها الى كوخ على منحدر رابية ، يظنه الناظر غير مأهول لولا ذلك الخيط الرفيع من الدخان الذى يتصاعد منه ضاربا الى الزرقة فى الظل ، ثم مصطبغا بالشقرة وسط اللون الذهبى الذى تحفل به صفحة السماء .

وربطت الحصان الى شجرة تفاح قريبة ، ثم لحقت بالصغيرة فى الحجرة المعتمة التى قضت فيها العجوز نحبها منذ قليل .

واحسست لجهامة المنظر ، وسكون اللحظة وخطورتها رعدة تسرى فى جسدى . وكانت ثمة امرأة لم تزل فى مرحلة الشباب جاثية بقرب الفراش . وتولت الصغيرة التى كنت حسبتها حفيدة المتوفاة ، ولكنها لم تكن الا خادمتها ــ اشعال شمعة كثيرة الدخان ، ثم وقفت ساكنة عند أسفل الفراش . وكنت قد حاولت طوال الطريق ان اجاذبها أطراف الحديث ، بيد انى لم استطع أن انتزع منها أربع كلمات .

ونهضت المرأة الراكعة . ولم تكن قريبـة للمتوفاة ، كما ظننت الوهلة الأولى ، بل جارة لها ، وصديقة كانت الخادمة قد توجهت لاستدعائها عندما تبينت ان قوى سيدتها وهنت ، فتطوعت للسهر على الجثمان . وقالت لى ان العجوز لفظت انفاسها بغير الم أو معاناة . واتفقنا معا على الترتيبات التى تتخذ للدفن ، ولطقوس

الجنازة . وكما هو الحال فى كثير من الأحيان فى ذلك الاقليم النائى، كان على أن اقرر كل شيء .

واعترف انني أحسست بشيء من الحرج اذ اترك هذا البيت ـ على ما هو ظاهر من فاقته ـ فى عهـدة هـذه الجارة وحدها ، بالاضافة الى هذه الخادمة الطفلة . بيد أنه لم يبـد لى محتملا على الاطلاق أن يكون فى أحد زوايا هذا المسكن الحقير كنز مخبوء .. ثم ماذا كنت عسيا أن اصنع ؟ ومع هذا سألت هل للعجوز وارث؟

وعندئذ تناولت الجارة الشمعة ، واتجهت بها صوب ركن المدفأة فاستطعت أن اتبين كائنا غير واضح المعالم جاثيا عند الـكانون ، كان يبدو انه نائم ، وقد غطى شعره الـكثيف وجهه فأخفاه تماما على وجه التقريب .

وقالت الجارة :

ـ هذه الفتاة العمياء ، قريبتها فيما تقول الخادمة . وهى كل ما تبقى من الأسرة ، فيما يبـدو ... وينبغى ايداعها الملجأ ، فلست أتخيل ما يمكن ان يصير اليه أمرها بغير هذا التدبير .

وغاظنى ان اسمع الجارة تقضى فى مصير الفتاة على مسمع منها ، واقلقنى ذلك الأسى الذى يمكن أن تحدثه لديها هذه الأقوال الجافية القاسية . فقلت بصـوت خفيض ، كى أدعو الجارة على الأقل الى خفض صوتها :

ـ لا توقظيها .

ـ أوه ! لا اعتقد انها نائمة ، بل هى بلهاء ، لا تتكلم ، ولا تفقه شيئا من كل ما يقال .. ومنذ خلت فى هذا الصباح بهذه الحجرة لم تكد تتحرك من وضعها هذا . وقد حسبتها فى البداية صماء ، ولـكن الخادمة تزعم انها ليست صماء ، بل ان صمم العجوز الراحلة جعلها لا توجه اليها الـكلام اطلاقا ، ولا الى أى كائن كان ، فلم تفتح فمها منذ أمد طويل الا لتأكل أو تشرب .

ـ وما عمرها؟

ـ نحو خمس عشرة سنة ، فيما اظن ! وان كنت لا أعلم عنها

على وجه التحقيق أكثر مما تعرفه أنت ..

ولم يخطر ببالى على الفور أن أتولى العناية بنفسى بتلك المسكينة المنقطعة ، ولكن بعد أن صليت ، أو على الأصح أثناء الصلاة التى قمت بها وانا راكع فيما بين الجارة والخادمة الصغيرة الراكعتين عند رأس الفراش ، بدا لى ان الله وضع فى طريقى هذا الالتزام ، وانه ليس فى وسعى أن أنكل عنه من غير أن الحق بنفسى وصمة الجبن .

ولما نهضت من ركوعى ، كنت قد اتخذت قرارى باصطحاب هذه الطفلة معى فى هذا المساء نفسه ، مع انى لم اكن قد سالت نفسى ماذا عسيت أن أصنع بها بعد هذا ، ولا الى من اعهد بها .

وظللت بضع لحظات اتأمل وجه العجوز النائم ، التى بدا فمهـا الأدرد المكشكش وكأنه كيس نقود زم خيوطه صـاحبه البخيل ، بحيث لا يند عنه شيء . ثم التفت صوب الفتاة العمياء ، وافضيت الى الجارة بما فى نيتى ، فقالت

ــ يحسن الا تكون هذه الفتاة هنا غدا ، عندما يحضرون لرفع الجثمان .

ولم تزد على هذا .

وما أكثر الأشياء التى كان من الممكن اداؤها بسهولة ، لولا تدخل البشر باعتراضاتهم الوهمية التى يتلذذون بابتداعها . وكم منعنـا منذ الطفولة من صنع هـذا الشيء او ذاك الشيء الذى كنا نريد الاقدام عليه ، لا لشيء الا لاننا كنا نسمع من حولنا هذه العبـارة تتردد باستمرار :

ــ لن يستطيع ان يصنع هذا ...

وانقادت العمياء لنا ، وكأنها كتلة لا ارادة لها .

وكانت ملامح وجهها منتظمة سوية ، على قسط حسـن من الجمال ، بيد أنه لا تعبير فيها على الاطلاق . وكنت قد أخـذت غطاء من فوق كومة القش التى كانت تضطجع فوقها عادة فى ركن من الحجرة ، تحت السلم الداخلى المفضى الى مخزن الغلال .

وابدت الجارة مجاملة وعونا ، فساعدتنيعلى لفها بالغطاء بعناية ، لأن الليل الصحو الخالى من الغيوم كان شديد الرطوبة . وهكذا انطلقت بالعربة بعد أن أشعلت فانوسها ، وتلك اللفافة من اللحم البشرى متكورة مستندة الى جنبى ، لا روح فيها ، فلم اكن لاحس فيها حياة لولا ما تسرب منها الى جنبى من حرارة غامضة .

وطفقت طوال الطريق اتساءل :

ـ انائمة هى ؟ واى نوم أسود عسى ان يكون هذا ... وهل ثمة فرق فى هذه الحالة بين اليقظة والمنام ؟ ان الروح التى تسكن هذا الجسد المعتم تنتظر ولاشك ، فى قلق ، ان يمسها فى النهاية شعاع من نعمتك وفضلك واحسانك يارب ! فهل لك ياربى أن تجعل محبتى تباعد بينها وبين ظلمة ليلها الرهيبة !

* * *

ويمنعنى حرصى الشديد على تحرى الحقيقة والصدق ان اكتم امر ذلك اللقاء الغاضب السيىء الذى تعين على ان اواجهه عند عودتى الى البيت .

ان زوجتى بستان من الفضائل . وحتى فى الأوقات العصيبة التى كان علينا فى بعض الأحيان ان نجتازها ، لم استطع ان اشك لحظة فى طيبة قلبها ونبله ، بيد ان احسانها الطبيعى ورحمتها لايرحبان بالمفاجآت ! ..

فهى انسان مرتب شديد الولع بالنظام لا يريد أن يتجاوز حدود الواجب المقرر من قبل، ولايريد ايضا ان يقصر دون مداه المرسوم المحسوب . فالاحسان والرحمة عند زوجتى منظمان جدا ، كأنما المحبة كنز لايمكن ان ينضب له معين ، فهى لا تأخذ منه الا بحساب وقدر .

وهذه هى نقطة الخلاف الوحيدة فيما بيننا .

فكان اول ما تبادر الى ذهنها عندما رأتنى عائدا ذاك المساء مع هذه الصبية ، ما عبرت عنه بهذه الصيحة :

ـ بماذا كبلت نفسك ايضا هذه المرة ؟

وكدابى فى كل مرة يتحتم فيها ان تجرى بيننا مناقشة اشبه بالمشادة ، بنات باخراج الأطفال الدين وقفوا هناك فاغرى الفم ، ملؤهم التساؤل والدهشة . آه ! ما ابعد الشبه بين هذا الاستقبال وبين الاستقبال الذى كنت اتمناه . ولم يبد السرور الا على ابنتى الصغيرة شارلوت ، التى شرعت ترقص وتصفق بيديها عندما ادركت ان شيئا جديدا حيا سوف يخرج من العربة ليدخل البيت . ولكن الآخرين جميعا ، الذين انشأتهم الأم على عينها ونسجتهم على منوالها ، سرعان ما القوا على فرحتها ماء باردا ، وجعلوها تدخل فى سياقهم .

وتلت ذلك لحظة بلبلة عظيمة . فلما كانت زوجتى واطفالى يجهلون ان الفتاة عمياء ، لم يدركوا سر العناية البالغة التى كنت ابذلها لتوجيه خطواتها . وكنت شخصيا شديد الارتباك بسبب التأوهات الغريبة التى شرعت العاجزة المسكينة تطلقها بمجرد ان تخلت يدى عن الامساك بيدها التى كنت قد ظللت ممسكا بها طوال الرحلة .

ولم تكن صيحاتها اشبه بتعبير آدمى ، بل كان المرء حريا ان يخالها أصوات انين يطلقها جرو . ولما كانت قد انتزعت لاول مرة من الدائرة الضيقة التى تنحصر فيها احساساتها المألوفة التى منها يتكون عالمها بأسره ، لذا اخذت ركبتاها تتخاذلان من تحتها . بيد انها ، عندما قربت نحوها مقعدا ، تركت نفسها تتهاوى مكومة على الأرض ، شأن من لم يتعود الجلوس . وعندئذ قدتها الى جوار المدفأة ، وثابت الى شيء من الهدوء عندما تسنى لها ان تجثو متكومة فى الوضع الذى رايتها فيه اول مرة قرب مدفأة العجوز المتوفاة ، قرب السياج الذى تبعث من خلفه النار .

وكانت وهى فى العربة قد تكومت امام المقعد ، وقضت الرحلة كلها ملتصقة بقدمى .

وتقدمت زوجتى — رغم كل شيء — فساعدتنى ، وهى التى كانت افضل حركاتها تلك التى تنبعث عن طبيعتها تلقائيا ، بيد ان عقلها يناضل ضد هذه الطبيعة التلقائية ، ويتغلب على نداء القلب .



وقالت لى بعد ان تم لنا استقرار الصبية فى موضعها :

ـــ ما الذى تنوى أن تصنعه بهذا الشىء ؟

فارتعدت روحى عنـــد سماع هذا اللفظ من فمها اشــارة الى الصبية ، ووجدت عناء فى مغالبة حركة استنكار كادت تبدر منى . ولـكننى كنت لم ازل متشبعا بتاملى الهادىء الذى استغرقت فيه طوال الرحلة ، فسيطرت على نفسى ، واستدرت نحوهم جميعا ـــ وكانوا قد تحلقوا حولى من جديد ـــ واضعا احدى يدى على جبين الصبية العمياء ، وقلت لهم بأقصى ما اســـعفنى من لهجات الوقار المهيب :

ـــ لقد جئتكم بالشاة الضالة (اشارة الى المثل المشهور فى كلام السيد المسيح) .

ولكن اميلى لا تقر انه من الممكن ان يكون فى تعاليم الانجيل شىء مناف للعقل ، او فوق مستوى العقـــل . ورأيت على محياها انها توشك أن تعترض وتحتج . وعندئذ أومات الى جاك وســـارة ـــ وهما متعودان على خلافاتنا الزوجية الصغيرة ، ثم هما قليلا الفضول بطبعهما (بل اقل فضولا مما يروقنى فى معظم الأحيان) ـــ فخرجا بالصغيرين من الحجرة. ولما وجدت زوجتى لم تزل مستاءة ومغيظة بعض الشىء ـــ فيما يبدو لى ـــ لوجود الدخيلة معنا ، قلت لها :

ـــ فى وسعك ان تقولى ما تشائين امامها ، فالصـــغيرة المسكينة لا تفهم ما يقال !

وعندئذ شرعت اميلى تقول انه ليس لديها يقينا ما تقوله لى ـــ وهى مقدمة مالوفة للدخول فى مناقشــــات مطولة ! ـــ وانه ليس امامها الا الاذعان ـــ كما هو الحال دائما لكل ما يمكن أن ابتدعه من امور بعيدة كل البعد عن المعهود وعن البداهة الســـديدة ، ومجافية للتطبيق العملى .

وقد كتبت آنفا اننى لم اكن قد قررت بعد ماذا انوى ان اصنع بهذه الصبية الصغيرة . ولم اكن فكرت ـــ اللهم الا بصورة غامضة جدا ـــ فى امكان اقامتها فى بيتنا ، واكاد استطيع ان اقول ان اميلى

هى التي اوحت الى بهذه الفكرة للوهلة الأولى ، عندما سألتنى الا اعتقد اننا مكتظون فى البيت . ثم أعلنت اننى اندفع دائما من غير ان أبالى بمقاومة من ورائى ، وانه فى اعتقادها ان الخمسة الأطفال فيهم الكفاية ، وانها شخصيا منذ ولادة كلود (الذى ما ان سمع اسمه يرد على لسان امه فى تلك اللحظة حتى شرع فى الصياح وهو مستلق فى مهده) تتحمل اقصى ما فى طاقتها ، وان ذلك حسبها .

ومنذ عبارتها الهجومية الأولى طفرت من قلبى الى شفتى بضعة اقوال للسيد المسيح ، كتمتها فى نفسى ، لاننى ارى دائما انه مما يتنافى مع اللياقة ان اجعل سلوكى يحتمى خلف سلطة الكتاب المقدس . ولكن ما ان تذرعت بما يلحقها من عناء فى البيت ، حتى شعرت بالخجل ، لاننى تذكرت انه كثيرا ما حدث منى انى القيت على كاهل زوجتى عواقب الاندفاعات التى تحملنى عليها حماستى من غير تدبر .

ومع هذا زادتى ملامها ادراكا لواجبى ، فتوسلت الى اميلى بكل رفق أن تحكم بنفسها : اكانت عسية أن تصنع خلاف ما صنعت لو انها كانت فى مكانى ، وهل كان بوسعها ان تترك فى هذا الضيق والكرب كائنا ضعيفا ليس لديه فى الدنيا مايستطيع الركون اليه .

وأضفت الى هذا اننى لست غافلا ولا مخدوعا فى مقدار المتاعب الجديدة التى ستضيفها هذه الضيفة العاجزة الى هموم تدبير البيت ، وان اسفى عظيم لاننى لم اعد قادرا على مساعدتها فى ذلك أكثر مما اقوم به الآن فعلا . وأخيرا هدأتها ما وسعنى ذلك ، وتوسلت اليها ايضا الا تسقط على المسكينة البريئة سخطا ليست جديرة به ولا جريرة لها فيه .

ثم لفت نظرها الى ان سارة صارت منذ الآن فى سن تسمح لها بمساعدتها اكثر من ذى قبل ، وان جاك اضحى فى سن يستغنى فيها عن رعايتها له . وقصارى القول ان الله وضع على لسانى الأقوال اللازمة لمساعدتها على تقبل ما انا موقن بانها كانت خليقة

ان تأخذه على عاتقها من تلقاء نفسها طواعية ، لو ان الأحداث تركت لها وقتا كافيا للروية ، ولولا انني تصرفت في ارادتها على حين غرة منها .

وحسبت انى كسبت الجولة او كدت ، واقتربت عزيزتى اميلى بطيبة قلب من جرترود ، بيد ان ضيقها اشتعل أشد من ذى قبل عندما حملت المصباح بيدها كى تفحص هذه الطفلة بعض الشيء ، فتبينت لها حالة قذارتها التي لا يمكن ان يحيط بها وصف ! وصاحت :

ـ ياله من وباء ! اسرع بتنفيض ثوبك وتفريشه . كلا ! ليس هنا ! اذهب وانفض نفسك فى الخارج ، آه يا الهى ! سيتفشى هذا كله بين الأطفال . وليس فى الدنيا ما اخشاه وافزع منه مثل هذه الحشرات والهوام !

ومما لاشك فيه أن الصغيرة المسكينة كانت مليئة بالحشرات والهوام . ولم أستطع أن امنع نفسى من ابداء حركة تقزز وانا افكر فى اننى كنت اضمها الى أمدا طويلا اثناء الرحلة فى العربة .

ولما عدت بعد دقيقتين حاولت فيهما تنظيف نفسى قدر استطاعتى ، الفيت زوجتى متهالكة فى مقعد وثير ، وقد وضعت راسها بين يديها ، وانخرطت فى نوبة نحيب . فقلت لها برقة وحنان :

ـ لم اكن احسب انى اعرض تجلدك وقوة احتمالك لمثل هذا الامتحان . ولكن الوقت هذا المساء صار متأخرا على كل حال ، ولا يمكن الرؤية فيه بقدر كاف . وساسهر الليلة كى اغذى النار التى ستنام الصغيرة بقربها . وغدا نقص لها شعرها ، ونغسلها كما ينبغى . ولن تشرعى فى العناية بها الا عندما يتيسر لك النظر اليها من غير فزع او استفظاع .

ورجوتها الا تقول شيئا عن هذا الأمر للأطفال .

وكانت ساعة العشاء قد حانت . واخذت الصغيرة العاجزة ـ التى كانت خادمتنا العجوز « روزالى » ترميها وهى تقدم لنا الطعام بنظرات عداء شديد ـ تلتهم بشراهة ما فى طبق الحساء الذى قدمته اليها بنفسى .

وخيم الصمت على المائدة. وكنت اتمنى ان اروى لهم مغامراتى، وأن اتحدث الى الأطفال ، واحرك مشاعرهم ، بافهامهم غرابة هذه الفاقة وهذا العوز التام ، بحيث يشعرون بوطاته ، وأحرك بهذا شفقتهم وعطفهم على تلك الصبية التى دعانا الرب الى تقبلها تحت رعايتنا . ولكنى خشيت أن ابتعث سخط اميلى . وبدا كأن امرا صدر يتناسى هذا الحدث ، والاشتغال بغيره ، وان لم يكن فى وسع اى واحد منا ــ قطعا ــ ان يفكر فى شىء سواه .

وقد تأثرت تأثرا بالغا عندما حدث ــ بعد مضى أكثر من ساعة على ايواء الجميع الى مخادعهم ، وترك اميلى اياى بمفردى فى الحجرة ــ ان رايت ابنتى الصغيرة شارلوت توارب الباب ، وتتقدم فى خفوت نحوى ، فى قميص نومها ، حافية القدمين ، ثم ترتمى على عنقى وتعانقنى بعنف وهى تتمتم :

ــ لم أقل لك بما فيه الكفاية طاب مساؤك !

ثم اشارت بطرف سبابتها الى الفتاة العمياء التى كانت نائمة بكل هدوء واستغراق ، وقد استبد بشارلوت الفضول لرؤيتها قبل أن تذهب لتنام ، وقالت بصوت خافت :

ــ لماذا لم اقبلها ؟

ــ ستقبلينها غدا . دعيها الآن . فهى نائمة ...

وصحبتها برفق الى الباب .

ثم عدت فجلست وانصرفت للعمل حتى الصباح ، قارئا أو محاولا اعداد موعظتى القادمة .

وخطر لى ان شارلوت تبدى يقينا من المشاعر أكثر مما يبديه من هم اسن منها فى يومنا هذا ، ولكن الم يخدعنى بمثل هذا المظهر كل واحد منهم عندما كان فى مثل سنها ؟ وكبيرهم جاك نفسه ، الذى يبدو اليوم متباعدا متحفظا ... فالمرء يحسبهم فى تلك السن الصغيرة رقيقين حانيين ، وهم فى الحقيقة متملقون متوددون ...

٢٧ فبراير

سقط الثلج بفزارة هذه الليلة ايضا . والأطفال شديدو الفرح ، ويقولون انه سيتعين على المرء بعد قليل أن يخرج من النافذة . والواقع ان الباب وجد هذا الصباح مسدودا ، ولم يتسن الخروج الا عن طريق المغسل .

وبالأمس استوثقت من آن لدى القرية وفر من المؤن ، الأننا بلا شك سنقضي بعض الوقت معزولين عن سائر البشرية . وليس هذا اول شتاء يسد علينا الثلج الطرق والمنافذ ويحصرنا ، ولكننى لا اتذكر انى رايت شبيها من قبل لعوائقه بمثل هذه الكثافة . وانا انتهز الآن هذه الفرصة كى أتم هذا السرد الذى كنت قد بدأته بالأمس .

وقد قلت آنفا انى لم اسأل نفسي قط ، عندما احضرت هذه العاجزة ، اى مكان يمكن ان تحتله فى المنزل . وكنت أعرف ضآلة مقاومة زوجتى ، واعرف ما يمكننا التصرف فيه من حيث المكان ، واعرف مواردنا المحدودة جدا .

وكنت قد تصرفت ــ كدابى دائما ــ بدافع من ميلى واستعدادى الطبيعى ، اكثر مما تصرفت بدافع من المبادىء ، ومن غير ان احاول حساب النفقات التى يمكن ان يستوجبها اندفاعى (الأمر الذى كان يبدو لى دائما مناقضا لتعاليم الانجيل) . ولكن الاتكال على الله شيء آخر غير القاء الأحمال على كواهل الآخرين .

وسرعان ما تبين لى اننى القيت على عاتق اميلى مهمة ثقيلة ، بلغ من ثقلها اننى ظللت فى البداية مأخوذا مرتبكا .

وكنت قد عاونتها جهد طاقتى فى قص شعر الصغيرة ، وكنت قد رايتها لا تقبل على هذا العمل الا فى تقزز .. اما غسلها فى الحمام وتنظيف جسدها فلم يكن لى بد من تركهما لزوجتى . وفهمت

بعد ذلك ان ابغض ما فى هذه المهام هو الذى فاتنى الاسهام فيه .

ولم تعد اميلى تبدى أقل احتجاج ، اذ يبدو انها كانت قد فكرت أثناء الليل واتخذت قرارها بتحمل هذا العبء الجديد . حتى انها ابدت بعض السرور به ، فقد رأيتها تبتسم بعد أن فرغت من تجهيز جرترود ، وقد أكتسى راسها الحليق المغطى بالمرهم بقلنسوة بيضاء ، وحملت بعض ملابس سارة القديمة وثيابها الداخلية النظيفة محل الأسمال القذرة التى القتها اميلى طعمة للنيران .

وكانت شارلوت هى التى اختارت لها اسم جرترود ، فوافقنا عليه فورًا ، جهلا منا بالاسم الحقيقى الذى كانت اليتيمة لاتعرف ما هو ، ولم أكن ادرى أين اعثر على اسمها الأصلى .

ولابد انها أصغر سنا بقليل من سارة ، لأن الملابس التى تخلت سارة عن ارتدائها منذ عام غدت ملائمة لها .

وينبغى ان اعترف هنا بخيبة الأمل العميقة التى شعرت بانها تخيم على الأيام الأولى التى تلت ذلك . فيقينا اننى تخيلت صورة وهمية كاملة للتربية التى ازمع ان امنحها لجرترود ، ثم فرض الواقع على ان انتقص منها الكثير جدا . فتعبير عدم المبالاة والبلادة التى نطق به محياها ، أو على الأصح انتفاء كل تعبير فيه على الاطلاق ، جمد نيتى الطيبة حتى منابتها . فقد دابت ان تظل طوال النهار قرب النار ، محجمة نافرة محتجزة الحواس ، وكلما سمعت أصواتنا ، وعلى الخصوص كلما اقترب منها احد ، تصلبت ملامحها ، ولا يفارق هذه الملامح جمودها غير المعبر الا لكى ينم على العداء . وما أن يحاول احد استرعاء انتباهها حتى تشرع فى الأنين والزمجرة كالحيوان . ولا يتوقف هذا الاعراض المتجهم الا عندما يحين وقت الطعام ، الذى كنت أقدمه لها بنفسى ، فتنقض عليه بنهم بهيمى من أشد ما يكون ايلاما لمن يشهده . وكما ان الحب يستثير الحب ، كذلك احسست بالنفور يستولى على نفسى امام ما تبديه هذه النفس من الاعراض والرفض .

أجل ، اعترف اننى كنت فى الأيام العشرة الأولى قد بلغت مرحلة

من اليأس ساقتنى الى نبذ الاهتمام بها ، حتى اننى ندمت على اندفاعى الأول ، وتمنيت لو اننى لم آت بها أصلا .

وغاظنى فضلا عن هذا ان زوجتى اميلى كانما شعرت بالانتصار بعض الشيء بازاء هذه المشاعر التى لم أعد قادرا على اخفائها عنها ، فراحت تفيض عنايتها ورعايتها التى تبذلها لها ، بمزيد من الاقبال وطيب الخاطر ، منذ احسبت ان جرترود غدت عبئا على ، وان وجودها بيننا يكاد يزهق نفسى .

وكنت على هــذا الحال عندما تلقيت زيارة صــديقى الدكتور « مارتن » ، من « فال ترافير » ، أثناء احــدى جولاته التى يطوف فيها على مرضاه . وقد اهتم كثيرا لمــا حدثته عن حالة جرترود ، ودهش فى بداية الأمر من انها ظلت متخلفة الى هــذا الحد ، لأنها فى نهاية المطاف ليست مصابة بعاهة غير كف البصر . فبينت له انه يضاف الى عاهتها هذه ما كانت العجوز التى ربتها مصابة به من الصمم ، وهى التى قامت بمفردها حتى وفاتها على رعايتها ، فلم تكن بطبيعة الحال تتحدث اليهــا ابدا ، بحيث ظلت المسكينة مهملة اهمالا تاما . وعندئذ اقنعنى انه لا يحق لى فى هذه الحالة ان اقنط ، كل ما هناك اننى لم احسن الابتداء فى مهمتى ، ثم قال لى :

ــ انت تريد ان تبدا تعليمها قبل التاكد من صلابة الأرض التى تقيم عليها البناء . فتذكر ان كل شيء يبدو فوضى فى هذه النفس، وان المخططات الأولى للمعرفة لم ترتسم لديها بعد . فينبغى فى البداية ان تربط بضع احساسات لمسية وتذوقية (او طعمية) فى حزمة واحدة ، ثم تلصق بهذه الحزمة صــوتا أو كلمة تكون بمثابة العنوان او اللافتة ، تكرر قولها لها حتى السآمة ، ثم تحاول بعد ذلك ان تجعلها تنطق بها . ويجب على الخصوص الا تسرع اكثر مما يجب ، واهتم بها وحاول هذا التعليم فى أوقات منتظمة ، واياك ان تجعل كل فترة منها تطول كثيرا .

ثم استطرد قائلا بعد أن افاض لى فى شرح منهجه بكل تفصيلاته :

ـ وليس فى هـــذا المنهج على كل حال سر سحرى . وانا لم اخترعه ، وكثيرون غيرى قاموا بتطبيقه من قبل . اولا تذكرذلك ؟ عندما كنا نحضر لاجازة الفلسفة معا ، قام اساتذتنا ، فى صـــدد الـكلام عن «كونديك» وتمثاله الحى ، بعرض حالة مثل هذه تماما.
ثم استدرك قائلا :

ـ اللهم الا اذا كنت قد قرات هذا فيما بعد فى احدى مجلات علم النفس ... وليس هـــذا بذى بال على كل حال ، فالمهم ان الحالة المذكورة استوقفتنى ، حتى اننى اتذكر اسم تلك الطفـــلة المسكينة ، التى كانت أشد عجزا من جرترود ، لأنها كانت عميـــاء وصماء وبكماء ، أهتم بها طبيب فى احدى مقاطعات انجلترا ، حوالى منتصف القرن الثامن عشر ، وكان اســـمها « لورا بريدجمان » . وقد عنى هذا الطبيب بتدوين يومياته عن حالتها ـ وهذا ما ينبغى عليك أن تقوم به ايضا ـ متتبعا تقدم الطفـــلة ، وجهوده الأولى لتعليمها . وقد واظب باصرار طوال ايام واسابيع على جعلها تلمس وتتحسس شيئين صغيرين بطريقة تبادلية : دبوسا وقلما ، ثم كان يجعلها تلمس على ورقة مطبوعة بطريقـــة « براى » المخصصـــة للمكفوفين هاتين الـكلمتين : Pin و Pen الانجليزيتين . وظـــل عدة أسابيع لا يحصل من وراء ذلك على اى طائل ، حتى خيـــل اليه ان جسدها غير مأهول بروح ، بيد انه لم يفقد الثقة . وقال فى وصف ذلك انه كان اشبه بامرىء عاكف على حلقة بئر عميقة مظلمة ، يحرك فى أعماقها حبلا باستماتة ، على أمل أن تمتد يد هناك فتقبض عليه . لأن الشك لم يساوره لحظة واحـــدة فى أن شخصا ما قابع هناك ، فى اغوار الهاوية ، وان الحبل الذى يدليه سيجد فى النهـــاية من يتعلق به ... واخيرا راى ذات يوم على قسمات ذلك الوجه الجامد الذى تحمله لورا ما يشبه الابتسامة . واعتقد ان دموع العرفان والمحبة طفرت عندئذ من عينيه ، وانه خر ساجدا على ركبتيه شكرا لله . فقد فهمت لورا اخيرا ما كان الدكتور يريده منها . وهكذا كتبت لها النجاة ! ومنـــذ ذلك اليوم أبدت



انتباها ويقظة ، وغدا تقدمها سريعا . ثم سرعان ما شرعت فى تعليم نفسها بنفسها ، وصارت فيما بعدمديرة لمعهد من معاهد العميان...
اللهم الا اذا كانت هذه المديرة امراة اخرى شبيهة بها فى ظروفها ، فقد تهافتت المجلات والصحف على نشر حالات مماثلة ، واجمع الكل فى بلاهة على انهن ظفرن بحياة سعيدة ، قائلين ان جميع اولئك العاجزات أو المصابات بآفات كن سعيدات ، وانه متى أتيح لاحداهن التعبيرعن نفسها، راحت تقص على الناس مدىسعادتها.
ولم يفت الصحفيين بطبيعة الحال ان يوبخوا من يتمتعون بحواسهم الخمس ، لأنهم يجدون فى انفسهم الجراة على الشكوى والتذمر !

وعندئذ شجرت مناقشة بين «مارتن » وبينى ، لأنى عارضت فى مكابرة ما ابداه من تشاؤم ساخر ، ولم اوافق على ان الحواس ليست ــ فى رايه ــ الا موردا للكدر والشقاء ، فقال محتجا :

ــ ليس هذا ما اعنيه ، بل اريد ان اقول ببساطة ان تخيل الجمال واليسر والتوافق أو التناغم ايسر على النفس الانسانية من تخيل الفوضى والخطيئة اللذين يلوثان العالم فى كل مكان ويلطخانه ويهبطان بقدره ويمزقانه . وحواسنا الخمس هى التى تعرفنا بهما وتساعدنا على الاسهام فيهما ... وكم يكون البشر اسعد حالا لو انهم استطاعوا ان يجهلوا الشر !.

ثم حدثنى الدكتور « مارتن » بأمر حكاية من حكايات ديكنز يعتقد انه استلهمها مباشرة مما حدث للورا بريدجمان ، ووعدنى أن يبعث بها الى فى اسرع وقت .

وبعد اربعة ايام تلقيت بالفعل تلك القصة التى كان عنوانها : « جندب الدار » ، فقراتها بلذة فائقة . وهى قصة طويلة بعض الشىء ولكنها مؤثرة مؤسية فى كثير من مواضعها ، عن فتاة عمياء كان والدها صانع دمى ولعب اطفال فقير الحال ، ولكنه جعلها ــ مستغلا عماها ــ تعتقد انها تعيش فى كنف اليسر والترف والثراء والسعادة . وهى اكذوبة استطاع فن ديكنز ان يقدمها لنا فى صورة عمل من اعمال الرحمة والتقوى ، ولكننى ــ حمدا لله ! ــ لن

اكون مضطرا أن احتذيها فى معاملة جرترود .

* * *

وقد شرعت ، منذ اليوم التالى لقدوم الدكتور«مارتن» لزيارتى ، فى تطبيق منهجه الذى أفاض فى شرحه لى ، واجتهدت فى ذلك ما وسعنى الاجتهاد .

وانى لنادم الآن على اننى لم ادون ملاحظاتى ومذكراتى يوما بيوم كما نصحنى « مارتن » ، الأسجل خطوات جرترود الأولى على هذا الطريق الشفقى ، الذى لم اكن ارشدها شخصيا فيه أول الأمر الا تلمسا او عسعسة .

وقد احتاج الأمر فى الأسابيع الأولى الى صبر أعظم مما يمكن ان يتصوره المرء ، لا بسبب طول الوقت الذى تقتضيه هـذه التربية الأولى فحسب ، بل أيضا بسبب أنواع الملام الذى عرضنى لها هذا الجهد المضنى . وانه ليعز على أن أقول ان هذا العذل الأليمكانت تصبه على زوجتى اميلى . بيد انى حين اذكره ها هنا ، لا اشعر اننى استبقيت من ذلك كله ادنى شعور بالهداء ، او أدنى مرارة . وقصاراى انى اذكره تحسبا ليوم عسى ان تطالع هى فيه هـذه الصفحات (اليس الصفح عن الاساءات قد اوصانا به السيد المسيح فى اعقاب امثولة الشاة الضالة مباشرة ؟)

بل انى اعنى اكثر من هذا . ففى اللحظة عينها التى كان تألمى من ملامها اشد ما يمكن ، لم استطع ان أحنق عليها أو اسخط لانها كانت تستنكر انفاقى كل هـذا الوقت الذى كنت اخصصه لجرترود . بل كان ما الومها عليه بصفة خاصة انها كانت عديمة الثقة بأن جهودى هذه يمكن ان يكتب لها النجاح بأى صـــــورة من الصور .

أجل ، فقدان ثقتها هو الذى كان يؤلمنى ، ولـكنه مع هذا لم يثبط من عزيمتى . فلـكم سمعتها تـكرر قولها :

ــ ليتك على الأقل تحصل على ثمرة بعد كل هذا العناء ...

وظلت طول الوقت مؤمنة باصرار وعناد بأن جهودى ذاهبة ادراج

الرياح . فكان من الطبيعى أن يبدو لها من الحمق ومجافاة اللياقة ان اخصص لهذه المهمة وقتا تعتقد هى انه أجدر أن يستخدم فيما هو اجدى . فكانت كلما شغلت بأمر جرترود تذكرنى دائما بأن هذا الشخص او ذاك الشىء ينتظر عنايتى ، واننى ابدد فى سبيل جرترود الوقت الذى كان ينبغى ان اوجهه لسواها ... ثم فى النهاية بدا لى انها تتقد بغيرة مبعثها مالديها من عاطفة الأمومة ، لأننى سمعتها تقول لى أكثر من مرة :

ــ انك لم تشغل نفسك قط بهذا المقدار كله للعناية بأحد من اطفالك !

وكان هذا حقا . فلئن كنت احب اطفالى كثيرا ، الا أنى لم اعتقد قط انه لابد من الاشتغال بامرهم كثيرا .

وما اكثر ما شعرت بأن امثولة الخروف الضال من اصعب الأمثولات استيعابا وتسليما لدى بعض النفوس ، وان كانت هذه النفوس تعتقد انها عميقة الايمان بالمسيحية . ذلك ان هؤلاء الناس لايستطيعون الارتقاء الى المستوى الذى يفهمون فيه ان كل شاة فى القطيع ، اذا ما اخذت على حدة ، يمكن أن تغدو فى نظر الراعى الصالح اقيم واثمن فى حد ذاتها من سائر القطيع فى جملته .

ان كلمات الأمثولة تقول (كما جاء فى إنجيل متى ١٨ : ١٢-١٤) :

ــ ما قولكم ؟ اذا كان لرجل مائة خروف ، فضل واحد منها ، أفلا يدع التسعة والتسعين فى الجبال ، ويمضى ينشد الضال ؟ انما ابن الانسان جاء ليخلص ما كان هالكا . الحق اقول انه اذا وجده يفرح به أكثر منه بالتسعة والتسعين التى لم تضل .

هذه الكلمات تفيض بالرحمة التى تشع منها . ولكن تلك النفوس التى لا ترقى الى مستواى لو نطقت بما تكنه فى صراحة تامة ، لرمت هذه الكلمات القدسية بالجور الجائر المثير !

* * *

ولقد عزتنى ابتسامات جرترود الأولى عن هذا كله ، وجزتنى على جهودى وعنايتى بها مائة ضعف ، لأن « الحق اقول لكم انه اذا

وجد الراعى ذلك الخروف الضـــال يفرح به أكثر منه بالتسعة والتسعين التى لم تضل » .

أجل . وأقولها بحق : ما من ابتسامة أفتر عنها ثغر أحد من أطفالى غمرت فؤادى بمثل هــذا الفرح الملائكى الذى غمرتنى به تلك الابتسامة التى رأيتها تشرق على ذلك الوجه الذى كان أشبه بالتمثال ذات صباح بدأت فيه تفهم وتهتم بما اجتهدت فى تعليمها اياه منذ أيام كثيرة .

الخامس من مارس .

لقد سجلت هذا اليوم بوصفه يوم ميلاد جديد . ولم يكن مارأيته ابتسامة بقدر ما كان تجليـــا . فعلى حين غرة دبت الحيـــاة فى ملامحها . فكان هذا أشبه باشراق مفاجىء ، أقرب ما يكون شبها بذلك الضوء الأرجوانى الذى نراه فى أعالى جبـــال الألب يسبق بزوغ الفجر ، فترتسم فيه القمم المغطاة بالثلوج بشيرا بانقضـــاء حلـكة الليل . وذكرنى ايضا ببركة « بيت ذاتا » فى اللحظة التى يهبط فيها الملاك ويحرك الميـــاه الراكدة . واســـتولى على نفسى الانتشاء أمام التعبير الملائكى الذى ارتسم على محيا جرترود فجأة ، لأنه خيـــل الى ان ما انتابها فى تلك اللحظة وهبط عليهـــا ليس الذكاء ، بقدر ما هو المحبة . وعندئذ تملـكتنى ســـورة عرفان ، سمت بى الى عليين ، حتى لقد بدا لى اننى أقدم قربانا لله تلك القبلة التى طبعتها على ذلك الجبين الجميل .

* * *

ولئن كانت هــذه النتيجة الأولى قد جاءت ثمرة جهود شـــاقة طويلة الأمد ، فان ما أعقبها من التقدم كان سريعا جدا على اثر ذلك ، حتى انى أجد الآن عناء فى تذكر السبل التى سلـكناها . فانه ليخيل الى أن جرترود كانت تتقدم فى قفزات كبيرة ، لا بخطا مستأنية ، حتى لـكأنها تسخر من وسائلنا التى انتهجناها . وأذكر اننى الححت فى البداية على صفات وكيفيات الأشياء ، اكثر مما عنيت بتبيانها وتنوعها ، فاهتممت أساسا بالحار والبارد، والدافىء ،

والحلو ، والمر ، والخشن ، واللدن ، والخفيف ، وما الى ذلك .
ثم اهتممت فى مرحلة تالية بالحركات، من قبيل الابعاد والتقريب ، والرفع ، والتقاطع ، والرقاد ، والعقد ، والتفريق ، والتجميع ، وما الى ذلك .

ولـكنني سرعان ما تخليت عن كل منهج ، ورحت أتحدث اليها من غير ان اهتم كثيرا هل يستطيع ذهنى متابعتى على الدوام أم لا ، الا انى صرفت اهتمامى الى دعوتها ببطء وحفزها على توجيه الأسئلة الى على مهل . وكلما عن لها هذا .

ومما لاشك فيه أن ذهنها كان يعمل فى الأوقات التى كنت أتركها فيها خالية الى نفسها ، لأنها كانت تطالعنى فى كل مرة أعود فيها اليها بمفاجأة جديدة ، بحيث كنت أحس ان الظلمة التى تفصلنى عنها تقل كثافتها ، فكنت أقول لنفسى انه على هذا النحو ينتصر دفء هواء الربيع شيئا فشيئا على زمهرير الشتاء . وكم من مرة اعجبت بالأسلوب الذى ينصهر به الجليد ، فكأنما هو معطف يبلى من داخله ، فى حين يظل مظهره الخارجى كما هو بعينه . وكانت اميلى تنخدع بذلك فى كل شتاء ، وتقول لى :

ـ ها هو الجليد لم يتغير !

فالمرء يخاله لم يزل سميكا ، ثم اذا به ينهـار دفعة واحدة ، ومن موضع الى موضع تتبدى من تحته الحياة مرة أخرى .

* * *

ولما كنت قد خشيت ان تذوى جرترود لبقائها طول الوقت الى جانب النار بلا انقطاع، كالعجائز ، لذا شرعت اخرجها الى الخلاء. بيد انها لم تكن لترضى بالتنزه الا معتمدة على ذراعى . وادركت من غير حاجة بى الى أن تقول لى انها لم تكن قد غامرت بالخروج من باب البيت قبل ذلك ... ادركت من دهشتها وخوفها فى بداية خروجنا معا . فحينما كانت تعيش بالكوخ الذى وجدتها فيه لم يشغل أحد نفسه بأمرها اللهم الاكى يقدم اليها ماتأكله ، ولمساعدتها على الا تتعرض للهلاك (فلست أجرؤ أن أقول لمسـاعدتها على الحياة) .

فعالمها المظلم كان محدودا بالجدران التى تتكون منها تلك الحجرة الوحيدة التى لم تغادرها قبل ذلك اليوم قط . وغاية ما فى الأمر انها كانت تغامر فى أيام الصيف بالوقوف على العتبة ، عندما كان الباب يترك مفتوحا على العالم الكبير المضىء .

وقد روت لى فيما بعد انها عندما سمعت تفريد العصافير تخيلت ان ذلك التفريد مجرد أثر من آثار النور ، شأنه شأن تلك الحرارة التى كانت تحسها تداعب خديها ويديها . وانها — من غير أن تطيل التفكير فى ذلك — كانت ترى من الطبيعى ان يأخذ الهواء الساخن فى التفريد والغناء ، على نحو ما يأخذ الماء فى الغليان اذا ما وضع على النار .

والواقع انها لم تعن نفسها بشىء من ذلك اطلاقا ، ولم تكن تلقى بالها الى شىء ، وتعيش فى خمول ، الى ان حل اليوم الذى شرعت فيه أهتم بها . وانى لأذكر سرورها الذى لا حد له عندما أخبرتها ان هذه الأصوات الصغيرة (التفريد) تنبعث من كائنات حية ، يبدو أن وظيفتها الوحيدة هى الاحساس بالطبيعة والتعبير عن شتى افراحها المبثوثة المتفرقة . ومنذ هذا اليوم صار من عادتها ان تقول :

— انا مسرورة جذلانة كالعصفور .

بيد أن تفكيرها فى أن هذه الأغاريد تروى بهاء منظر لا تستطيع هى أن تشاهده وتتملى منه شرع يبث فى نفسها الاكتئاب . وكانت تسألنى :

— أصحيح ان الأرض بكل هذا الجمال الذى تصوره أغاريد الطيور ؟ لماذا لا يحدثنى أحد عن هذا ؟ لماذا لا تحدثنى عنه أنت ؟ أخوفا من ايلامى ، لأننى لا أستطيع ان أراه ؟ أنك لمخطىء . فأنا أجيد الاصغاء للعصافير والطيور ، واعتقد انى أجيد فهم ما تقول .

— ان من يستطيعون رؤيتها لا يجيدون سماعها كما تجيدينه أنت يا عزيزتى جرترود .

أقول ذلك لها ، على أمل ادخال العزاء على قلبها . فتسألنى :

— ولماذا لا تغرد سائر الحيوانات مثلما تغرد الطيور ؟

وكانت أسئلتها تأخذني أحيانا على غرة ، فأظل برهة مبلبلا مرتبكا ، لأنها أسئلة تحملني على التفكير فيما كنت أتقبله حتى تلك اللحظة بغير دهشة أو عجب . وهكذا فكرت — لأول مرة في حياتي ، في أن الحيوان كلما زاد التصاقه بالأرض عن كثب ، وكلما ثقل وزنه ، زاد اكتئابه ! وهذا ما حاولت أن أفهمها اياه ، وحدثتها كذلك عن السنجاب البرى والاعيبه المرحة .

وعندئذ سألتني :

— هل الطيور هي الحيوانات الوحيدة التي تحلق في الجو ؟

فقلت لها :

— بل هناك الفراشات أيضا .

— وهل الفراشات تغني ؟

فأجبتها :

— بل لها أسلوب آخر للتعبير عن فرحها ... وهـذا الأسلوب يتمثل في تلك الألوان على جناحي الفراشة .

ووصفت لها جهدي برقشة أجنحة الفراش .

٢٨ فبراير

اليوم أعود القهقرى ، لاننى بالأمس تركت العنان لنفسى فانسقت مندفعا .

* * *

لقد تعين على ــ كى أعلم جرترود الأبجدية الخاصة بالعميان ــ أن اتعلمها شخصيا أولا ، بيد انها سرعان ما غدت ابرع منى فى قراءة هذه الكتابة التى كنت أجد مشقة عظيمة فى التعرف عليها ، والتى كنت فضلا عن هذا اتابعها للقراءة بعينى ، أكثر مما اتابعها بأناملى .

ثم اننى ــ فضلا عن هذا ــ لم اكن الشخص الوحيد الذى يقوم على تعليمها . وفى البداية كنت سعيدا اذ اجد من يساعدنى فى هذه المهمة ، لأن اعمالى فى انحاء الابروشية كثيرة جدا ، لأن المنازل فيها شديدة التشتت ، بحيث يتحتم على كيما أقوم بزيارة الفقراء والمرضى ان أقوم برحلات واشواط بعيدة الشقة جدا فى بعض الأحيان .

وكان جاك قد « توصل » الى كسر ذراعه اثناء تزحلقـــه على الجليد فى عطلة عيد الميلاد التى حضر لتمضيتها معنا ، اذ كان قبل ذلك قد عاد الى لوزان حيث كان قد قام بدراساته الأولى ، ودخل كليـــة اللاهوت . ولم يكن الـكسر الذى اصـــيب به يمثل أدنى خطورة ، واستطاع الدكتور مارتن ، الذى كنت قد اســـتدعيته فى الحال ، أن يجبره بسهولة ، بدون حاجة الى الاستعانة بجراح ، بيد ان الاحتياطات التى فرضت نفسها على جاك أجبرته على ملازمة البيت بعض الوقت .

وعندئذ بدأ فجأة يهتم بجرترود ، التى لم يكن حتى ذلك الحين قد أولاها أدنى اعتبار ، وشغل نفسه بعد ذلك بمساعدتى فى تعليمها القراءة . ولم يستمر هذا التعاون الا ريثما انقضت فترة نقاهته ،



التى دامت زهاء ثلاثة اسابيع ، الا ان جرترود أحرزت تقدما محسوسا . ذلك أن حماسة خارقة للمعتاد استولت عليها وصارت تستحثها . فاذا بذكائها الذى كان بالأمس القريب خائرا أو هاجعا وقد انبرى بكل همة ، كمن لم يكد يتعلم كيف يخطو خطواته الأولى فاذا به يشرع فى الجرى قبل ان يتعلم المشى !

وانى لأعجب بما كانت تجده من اليسر فى صياغة افكارها ، وكيف استطاعت بسرعة فائقة ان تصل الى التعبير عما يدور بخاطرها ، لا بأسلوب طفلى على الاطلاق ، بل بأسلوب صحيح ، مستعينة على تصوير فكرتها — فى نهج غير متوقع وفى غاية الطرافة واللطف — بالأشياء التى عرفناها بها ، أو بالأشياء التى حدثناها عنها أو وصفناها لها عندما يتعذر علينا أن نجعلها فى متناول يدها مباشرة ، ذلك اننا كنا نستخدم دائما ما تستطيع لمسه أو شمه فى شرح ما لايمكنها احتواءه ، متخذين فى ذلك طريقة قياس الأبعاد .

بيد اننى اعتقد انه لا جدوى من ان أدون هنا جميع الخطوات الأولى فى مدارج ذلك التعليم ، وهى خطوات متبعة بلا شك فى تعليم كافة العميان . وهكذا يلوح لى ان مسألة الألوان كانت بالنسبة لكل اعمى مشكلة محيرة ومحرجة لكل من مارس تعليم المكفوفين. (وفى هذا الصدد استرعى انتباهى الى ان الانجيل خال من اى اشارة الى الألوان) .

ولست ادرى كيف تصرف الآخرون فى هذا الشأن . اما أنا فقد شرعت فى تعريفها اسماء ألوان الطيف ، طبقا لترتيب ظهورها فى قوس قزح . ولكن سرعان ما التبس فى ذهنها الأمر بين اللون والضوء أو الاتضاح . ولاحظت ان خيالها لايستطيع التوصل الى اى تمييز بين اختلاف درجات اللون وبين ما يسميه الرسامون « الرتبة » . فما كان أشق أن تفهم ان كل لون يمكن أن يكون متفاوت العمق ، وان جميع الألوان يمكن أن تختلط فيما بينها فى امتزاج لا حصر له . وكان ذلك يحيرها ويبلبلها ، ولا تفتأ تعود للكلام فيه .

وقد أتيح لى ـ مع هذا ـ أن آخذها الى نيوشاتل حيث استطعت أن أوفر لها الاستماع الى حفل موسيقى. ويسر لى الدور الذى تقوم به كل آلة فى السيمفونية أن أعود للكلام فى مسألة الألوان هذه . ولفت نظر جرترود الى أنواع الرنين المختلفة للآلات النحاسية ، والآلات الوترية والخشبية ، وان كل آلة منها لها طريقتها الخاصة وقابليتها ، مع تفاوت فى الشدة ، لاعطائنا كل نغمات السلم الموسيقى ، من اعرضها الى اشدها حدة . ثم دعوتها أن تتخيل على نفس الشاكلة ما يتبدى فى الطبيعة من تنويعات حمراء وبرتقالية شبيهة برنين الأبواق والمزامير ، وتنويعات صفراء وخضراء شبيهة برنين الفيولينات والفيولونسيلات والباصات . وتنويعات بنفسجية وزرقاء تمثلها هنا الفلوت والكلارينيت الاوبوا . وعندئذ حلت نشوة فرح داخلية محل الشكوك لديها ، وراحت تكرر قولها :

ـ كم لابد أن يكون هذا جميلا .

ثم قالت فجأة :

ـ ولكن ماذا عن الأبيض ؟ لم أفهم بعد ماذا يشبه اللون الابيض ؟..

وعلى الفور بدا لى مبلغ تزعزع مقارناتى وتشبيهاتى . وحاولت أن أقول لها مع هذا :

ـ اللون الأبيض هو ذلك الحد الحاسم الواضح المشرق الذى تمتزج عنده كل هذه الألوان ، كما ان اللون الاسود هو نهايتها المعتمة..

بيد أن هذا التفسير لم يرضنى ، كما أنه لم يرضها ، اذ انها سرعان ما قالت لى ان الآلات الخشبية والنحاسية والفيولينات تظل كل منها متميزة عن سائرها فى أعرض النغمات كتميزها فى اعظمها حدة .

ولكم عرضت مناسبات كهذه المناسبة كنت الوذ فيها بالصمت فى البداية ، مبلبلا متحيراً ، لا أدرى الى اى المقارنات والتشبيهات يمكن أن ألجأ . واخيراً قلت لها :

ـ حسنا ! تخيلى الأبيض وكأنه شىء تام النقاء ، شىء ليس فيه اى لون ، بل هو ضوء محض فحسب . وتخيلى الأسود ـ على العكس من ذلك ـ مثقلا باللون الى تمام العتمة أو الحلكة ...

* * *

ولست أروى هنا هذا الحوار الذى يشبه الحطام الا كى يكون مثلا للصعوبات التى كثيرا جدا ما كنت أرتطم بها . فقد كانت جرترود تتميز بأنها لا تتظاهر أبدا بالفهم ، كما يصنع الناس فى كثير جدا من الأحيان ، وبذا يزحمون أذهانهم بمعلومات غير دقيقة أو غير صحيحة ، تعيب فيما بعد كل مايصدر عنهم من استدلالات. أما هى فتظل كل معلومة سببا للقلق والضيق ما لم تتكون لديهـا عنها فكرة واضحة متميزة محددة .

وفيما يتعلق بما قلته آنفا ، جعلت الصعوبة تتفاقم بسبب ماكان فى البداية من ارتباط وثيق بين معنى الضوء ومعنى الحرارة فى ذهنها، بحيث وجدت أعظم المشقة والعناء فى الفصل بينهما فيما بعد.

* * *

وهكذاكنت أخبر وأحس بلا انقطاع ـ من خلالها ـ بمبلغ التباين بين العالم المرئى وعالم الأصوات ، والى أى حد تبدو عرجاء كل مقارنة نحاول بها تشبيه ما فى أحد هذين العالمين بما فى الآخر .

٢٩ فبراير

لقد شغلتني مقارناتي - بين الألوان والأصوات - فلم اذكر هنا بعد مبلغ ما استولى على جرترود من سرور عظيم بذلك الحفل الموسيقي (الكونسير) الذى حضرته في نيوشاتل . وقد كانت القطعة التى عزفتها الفرقة هى بالتحديد « السيمفونية الرعوية » .

واقول « بالتحديد » ؛ لأنه لم يكن ثمة عمل موسيقى كنت اتمنى ان اجعلها تسمعه ، أكثر من هذه السيمفونية . وقد ظلت جرترود امدا طويلا بعد مغادرتنا ذلك (الكونسير) لائذة بالصمت ، وكأنما استغرقتها النشوة .

وأخيراً قالت :

- أحق ان ما تراه بمثل هذا الجمال ؟

- بمثل جمال ماذا ياعزيزتى ؟

- بمثل جمال ذلك « المشهد على شط الجدول » .

ولم أرد عليها في الحال ، لأنه دار بخلدى ان هذه التناغمات التى لا توصف لا تصور العالم كما هو ، بل العالم كما كان من الممكن أن يكون ، اى كما كان من الممكن ان يوجد لولا الشر ، ولولا الخطيئة . ولم اكن قد تجاسرت البتة من قبل على التحدث الى جرترود عن الشر وعن الخطيئة وعن الموت .

واخيرا قلت لها :

- أن من لهم عيون وأبصار لايعرفون مبلغ ما أوتوه من سعادة.

فصاحت على الفور :

- أما انا التى لا بصر لها فأعرف سعادة السمع !

وكانت تلتصق بى وهى سائرة ، وتتكىء بثقلها على ذراعى ، على نحو ما يصنع الأطفال الصغار .

- اتشعر ، أيها الراعى (القس) بمبلغ سعادتى ؟ كلا . كلا !

لست أقول هذا الكلام كى ادخل السرور على نفسك . انظر الى! اليس يبدو هذا على المحيا عندما يقول المرء ما يجافى الحق ؟ أما انا فأعرف هذا على الفور من نبرة الصوت. أتذكر ذلك اليوم الذى قلت لى فيه انك لم تكن تبكى ، بعد أن قامت خالتى (فهكذا كانت تدعو زوجتى) بتوبيخك لأنك لا تعرف كيف تقدم لها العون؟ عندئذ هتفت فى سريرتى : انت تكذب الآن أيهـــا الراعى (القس) ! اوه ! لقد أحسست على الفور فى صوتك انك لا تقول لى الحقيقة ، ولم اكن بحاجة الى تحسس وجنتيك كى أعرف انك كنت تبكى .

ثم عادت بعد لحظة تكرر قولها بصوت عال جدا :

ــ كلا ! لم تكن بى حاجة الى تحسس وجنتيك .

فاحمر وجهى ، لأننا كنا لم نزل فى المدينة ، ولأن بعض المـارة تلفتوا عند سماع صوتها العالى . ومع هذا استطردت تقول :

ــ ينبغى الا تحاول تلبيس الحقيقة على ، أولا لأنه من الخساسة الى حد كبير أن تحاول خداع عمياء ...

وأردفت ضاحكة :

ــ ثم ان ذلك لن ينطلى على. والآن قل لى أيها الراعى (القس) انت لست شقيا . اليس كذلك ؟

فرفعت يدها الى شفتى ، كأننى اريدها أن تحس ــ من غير أن اعترف لها بذلك صراحة ــ ان سعادتى صادرة عنها ، وقلت لها :

ــ كلا ياجرترود ، كلا ! لست شقيا . وكيف يمكن أن اكون شقيا ؟

ــ ولكنك مع هذا تبكى أحيانا ؟

ــ أجل ، كنت أبكى أحيانا .

ــ ولكن ليس بعـــد المرة التى ذكرتها لك ؟

ــ كلا . لم اعد ابكى ، بعد تلك المرة .

ــ ولم تعد تتمنى أن تبكى ؟

ــ كلا ياجرترود .

ــ والآن قل لى ــ الم تساورك بعدها الرغبة فى الكذب ؟

ـ كلا . يا ابنتى العزيزة .
ـ افى وسعك ان تعدنى بالا تحاول البتة خداعى ؟
ـ اعدك بهذا .
ـ عظيم ؟ قل لى الآن فورا ، اانا جميلة ؟
واربكنى هذا السؤال المفاجىء ، لاننى لم ارد حتى ذلك اليوم ان القى انتباهى الى جمال جرترود الذى لا مراء فيه ، وكنت ارى انه لا طائل ـ فضلا عن هذا ـ وراء اخبارها به .
وقلت لها على الفور :
ـ وماذا يهمك من معرفة هذا ؟
فقالت :
ـ بل هذا مصدر همى ولب اهتمامى . اريد أن اعرف هلانا... كيف تعبرون أنتم عن هذا ؟.. اريد ان اعرف هل أنا لست نشازا جسيما جدا فى السيمفونية . والى من سواك ، ايها الراعى ، يمكن ان أتوجه بسؤالى هذا ؟
فقلت لها ، مدافعا عن نفسى جهد استطاعتى :
ـ ليس للراعى أن يهتم بجمال الوجوه .
ـ ولمـــاذا ؟
ـ ذلك انه بحسبه جمال الأرواح .
فقالت :
ـ اذن انت تفضل ان تدعنى أعتقد اننى قبيحة ...
وقالت ذلك فى عبوس فاتن ، بحيث لم اطق صبرا ، وهتفت بها :
ـ جرترود ! انت تعلمين جيدا انك جميلة !
فصمتت ، وران على محياها تعبير جاد جدا ، لم يفارقه قط الى ان عدنا الى البيت .

* * *

وما أن دخلنـــا المنزل حتى وجدت زوجتى اميلى الوســـيلة لاشعارى بأنها لا تقر ذلك الأسلوب الذى قضيت به يومى هذا ..



وكان بوسعها أن تقول لى ذلك قبل الآن ، بيد أنها تركتنا ننطلق، جرترود وأنا ، من غير أن تتفوه بكلمة ، طبقا لعادتها فى تركى اصنع ما أشاء ، محتفظة لنفسها بالحق فى الانحاء على باللائمة فيما بعد.

وهى على كل حال لم توجه الى اللوم هذه المرة بصورة محددة ، بل كان صمتها نفسه اصبع اتهام . ألم يكن من الطبيعى أن تستخبرنا عما سمعناه فى (الكونسير) الموسيقى ، ما دامت تعلم سلفا اننى انما صحبت جرترود لهذا الغرض ؟ أو لم يكن من شأن فرح هذه الصبية أن يربو ويزداد بأدنى ما تبديه اميلى من اهتمام بما يدخل السرور على نفسها ؟

بيد ان اميلى لم تلزم جانب الصمت على اطلاقه ، بل بدا عليها انها تتكلف عمدا ألا تتكلم الا عن أمور بالغة التفاهة . وفى المساء ، عندما أوى الأطفال الى مضاجعهم انتحيت بها جانبا وسألتها بحدة :

ـ اغاضبة أنت لأننى أخذت جرترود الى (الكونسير) ؟

فكان جوابها :

ـ انك تصنع لها ما لم تكن لتصنعه لأى أحد من أطفالك !

هى اذن عين الشكوى التى تتكرر منها دائما ، وعين ما تعودته من رفض ادراك ان المرء يحتفل بالابن الضال حين يعود ، لابأولئك الذين ظلوا فى البيت ، على نحو ما يبينه لنا المثل الذى ضربه السيد المسيح .

وآلمنى ايضا أنها لم تكن تحسب أى حساب لعاهة جرترود ، التى لايمكن أن تطمح الى اى احتفال سوى هذا الاحتفال الموسيقى. ولئن كنت فى هذا اليوم خاليا ـ بعناية الرب ـ من المشاغل (وأنا المثقل بالواجبات عادة) فان لوم اميلى لى يغدو جائرا لأنها تعلم تمام العلم ان كل واحد من اطفالى كان لديه فى هذا اليوم عمل يؤديه ، أو مشغلة تشغله وتبقيه فى البيت ، وانها هى شخصيا (أى اميلى) لا تذوق لديها للموسيقى اطلاقا ، بحيث لو توفر لها وقت الفراغ مهما كثر فلن يخطر ببالها أن تذهب الى حفل موسيقى ، وان كان هذا الحفل عن كثب من باب دارنا .

واحزنني اكثر من هذا كله ان اميلى اقدمت على التصريح بهذا كله أمام جرترود ، فمع انى انتحيت بزوجتى جانبـــا ، الا انها حرصت على رفع صـــوتها بحيث تسمعه جرترود . والحق ان استنكارى كان أشد من حزنى . وما أن غادرتنا اميلى بعد لحظات حتى اقتربت من جرترود ، وتناولت يدها الصغيرة الناحلة وحملتها الى وجهى قائلا :

ـ هانت ترين انى لم ابك هذه المرة !

فقالت ، وهى تحاول أن تبتسم لى :

ـ كلا . بل كان هذا دورى هذه المرة !

ورأيت وجهها الجميل الذى رفعته الى غارقا فى الدموع ...

٨ مارس

ان المسرة الوحيـــدة التى استطيع ادخالها على نفس اميلى أن امتنع عن عمل ما يسؤها ، وامارات الحب السلبية الخالصة هذه هى كل ما تبيحه لى . اما الى اى حد استطاعت فعلا أن تضيق حياتى ، فهذا ما لاتستطيع ان تلقي بالها اليه او تدركه .

آه ! ليت الله يشاء لها أن تطالبنى بالاقدام على عمل عسير ! فما أعظم فرحى لو تسنى لى أن أقدم من أجلها على اقتحام الخطر والاجتراء عليه ! وكانى بها تنفر من كل ما ليس معتادا مألوفا ، بحيث لا يتجاوز التقدم فى الحياة لديها اضافة أيام متشابهة الى الماضى الذى تشبهه . وهى لا تأمل ، بل ولا تقبل منى ، فضائل جديدة ، ولا نموا أو زيادة فى الفضائل المقررة ســلفا . وتنظر بقلق ، ان لم نقل بتثريب ، الى كل جهد تقوم النفس التى ترى فى المسيحية شيئا آخر غير ترويض الغرائز وآستئناسها .

وينبغى أن أعترف هنـــا اننى كنت قد نسيت تماما وانا فى نيوشـــاتل أن اتوجه لتسوية حساب البزازة التى نتعامل معها ، طبقا لرجاء اميلى ، وان احضر لها علبة خيط . ولـكنى سخطت على نفسى لهذا التقصير فيما بعد ، سخطا يتجاوز بكثير ما يمكن أن تشعر هى به نحوى ، ولاسيما اننى كنت قد آليت على نفسى الا يفوتنى هذا الأمر ، عالما ان « الأمين فى الصغائر أمين أيضا فى العظائم » ـ وكنت أخشى كثيرا ما يمكن أن تستخلصه من هـــذا النسيان . بل وتمنيت أن توجه الى شيئا من اللوم على ذلك ، لاننى كنت قطعا مستحقا للوم فى هذا الشأن .

ولـكن الذى حدث أن حنقها الوهمى طغى على العشرة أوالسقطة المحددة . آه ! كم تكون الحياة أجمل ، وكم يكون شقاؤنا أهون احتمالا ، لو اننا أكتفينا بالشرور الواقعية ولم نعر آذانا صاغية

لأشباح تفكيرنا وخيالاته الشائهة . بيد انى أرخى العنان هنا لنفسى كى انساق فيما يصلح بالأولى موضوعا لاحدى عظاتى (لاتقلقوا !). فاننى هنا لا أسجل الا ما يتصــل بتاريخ نمو جرترود ذهنيــا وخلقيا . والى هذا الموضوع الأساسى أعود .

* * *

كنت أتمنى لو تابعت هنا هذا النمو خطوة خطوة ، وقد بدات بالفعل أروى تفصـــيلاته . ولــكن فضلا عن انه تعوزنى الفسحة الـكافية من الوقت لتسجيل جميع المراحل بدقة ، فانه من العسير على جدا ان اتذكر السياق بالضبط .

لقــد جرفنى السرد فى تياره فرويت أولا تعليقــات فاهت بها جرترود ، ومحادثات لى معها متأخرة جدا ، بحيث يدهش القارىء الذى قد يطالع هذه الصفحات ولاشك اذ يسمعها تعبر عن افكارها بمثل هذه الدقة ، وتفكر بمثل هذا الاحكام . ثم ان تقدمها جرى بسرعة محيرة : حتى انى لأعجب فى كثير من الأحيان للسرعة التى تمثل بها فكرها الغذاء الذهنى الذى كنت اقدمه اليها ، بل وكل ما يمكن أن يكون فى متنــاول عقلهــا ، فى نشاط عظيم ونضوج متصل . وكانت تدهشنى بسبقها الدائم لتفكيرى ، وتجاوزها اياه ، بحيث كنت ما بين حديث لى معها والذى يليه لا أكاد أتعرف على تلميذتى .

وما أن انقضت بضعة اشهر حتى بدا لى أن ذكاءها لم يخلد الى السبات أمدا طويلا . بل أظهرت من الحكمة ما لا تتمتع به غالبية الفتيــات اللواتى يشتت انتباههن العالم الخارجى ، وتستغرقهن الشواغل الـكثيرة التافهة .

وفضلا عن هذا كانت ــ فيما أعتقد ــ أسن مما بدا لنا فى أول الأمر . وبدا انها تستغل عماها على أحسن وجه ، بحيث راودنى الظن ان هذه العاهة نفعتها من كثير من الوجوه . ووجدت نفسى ــ برغمى ــ أقارن بينها وبين شارلوت . وعندما كنت أقوم أحيانا بمراجعة دروس شارلوت ، وأجد ذهنها شــاردا لأقل ذبابة تحلق

بقربها فى الحجرة ، كنت اقول فى نفسى :

ــ كم يكون اصغاؤها لى خليقا ان يكون أفضل وأتم لو لم تكن مبصرة !

* * *

وغنى عن القول ان جرترود كانت شديدة الولع بالقراءة . ولما كنت أشد اهتماما بمصاحبة تفكيرها الخاص قدر الامكان ، لذا كنت افضل الا تقرأ كثيرا ، أوعلى الأقل ليس كثيرا ، ولاسيما التوراة . وهو أمر يبدو غريبا أن يصدر عن راع (قس) بروتستنتى . وسأفسر السبب فى هذا ، ولكنى ــ قبل الشروع فى مسألة بهذا القدر من الأهمية ــ أريد ان أروى واقعة صغيرة لها صلة بالموسيقى، يجب أن نضعها تاريخيا ــ طبقا لما اتذكره ــ بعد الحفل الموسيقى فى نيوشاتل بوقت قصير .

اجل ، كان هذا الحفل الموسيقى (الكونسير) قد أقيم ــ فيما اعتقد ــ قبل عطلة الصيف بثلاثة أسابيع ، تلك العطلة التى جاءت الينا بابنى جاك من مدرسته . وفى تلك الفترة كنت أحيانا آتى بجرترود وأجلسها امام الهارمونيوم الصغير فى كنيستنا ، وهوالذى تتولى العزف عليه أساسا الآنسة دى م .. التى تقطن لديها جرترود حاليا ...

ولم تكن الآنسة دى م قد بدأت تعليم جرترود الموسيقى بعد . وبرغم حبى الشديد للموسيقى ليست لى بها دراية كبيرة ، ولم اشعر قط انى مستطيع ان اعلمها شيئا منها عندما جلست أمام المعزف بقربها .

وقالت لى جرترود منذ العسعسات أو التحسسات الأولى :

ــ كلا . دعنى ، فانى أفضل أن احاول هذا بمفردى !..

وتركتها وانا اشعر بالرضا لأن الكنيسة لا تبدو لى البتة مكانا ملائما اغلقه على كلينا وحدنا ، احتراما لهذا الموضع المقدس ، واتقاء للأقاويل .. وان كنت فى العادة أجتهد الا القى الى هذا بالى ، بيد ان الأمر هنا يتعلق بها وليس متعلقا بى وحدى .

وكنت حينما يدعوني الواجب الى القيام بدورة من الزيارات في هذا الاتجاه أصحبها حتى الكنيسة ، ثم أتركها فيها ، وكثيرا ما امتد غيابي عنها ساعات طويلة ، ثم ارتد اليها لأصحبها عند عودتي. وكانت تشغل نفسها في تلك الساعات بصبر واناة لاكتشاف توافقات موسيقية ، فكنت أجدها قرب المساء منصرفة بكل انتباهها الى لحن توافقي تغمرها بالنشوة الطويلة ...

وبعد نحو ستة أشهر ، في يوم من أوائل أيام شهر اغسطس ، لم أجد الأرملة التي كنت أريد زيارتها لادخال شيء من العزاء عليها في دارها ، فعدت كي آخذ جرترود من الكنيسة حيث كنت قد تركتها . ولم تكن تنتظر عودتي اليها في مثل هذا الوقت المبكر، فأدهشني غاية الدهشة أن أجد ابني جاك معها .

ولم يكن أحد منهما قد يسمعني وأنا أدخل الكنيسة ، لأن صوت الباب الخافت تلاشى وسط رنين الأرغن . وليس الترصد او التلصص من طبعي ، بيد ان كل ما يتصل بجرترود قريب الى قلبي ، لذا خففت من خطواتي وصعدت متسللا تلك الدرجات القليلة التي تفضي الى المنصة التي هيأت لي موقعا ممتازا للمراقبة.

وينبغي أن أقول انني طوال الوقت الذي مكثته هناك لم أسمع من أي منهما كلمة واحدة لم يكن حريا أن يقولها امامي . بيد أن جاك كان ملاصقا لها ، ومرارا عديدة رأيته يتناول يدها كي يرشد أناملها الى أصابع الأرغن الصائبة .

أو ليس اذن غريبا أن تقبل منه الملاحظات والتوجيه الذي قالت لي من قبل انها تفضل الاستغناء عنه ؟

وكانت دهشتي أشد ، والمي أعظم مما كان ينبغي ان اعترف بهما بيني وبين نفسي ، وكنت أفكر في التدخل عندما رأيت جاك يخرج ساعته فجأة ويقول لها :

— حان الآن ان أغادرك ، فأبي لن يلبث أن يعود !

ورأيته عندئذ يرفع الى شفتيه اليد التي تركتها له مستسلمة، ثم انصرف ...

وبعد بضع لحظات ، هبطت الدرج بلا صـــوت ، وفتحت باب الـكنيسة بحيث تستطيع أن تسمع صوت فتحه لتعتقد انى مزمع ان ادخل ، وقلت :

ـ والآن ياجرترود ، امســــتعدة انت للرواح ؟ هل الارغن على مايرام ؟

فأجابتني بصوتها الطبيعي جدا :

ـ نعم . على ما يرام جدا . وقد احرزت اليوم تقدما حقيقيا.

فغمر فؤادي حزن شديد ، بيد أن أحدا منا لم يشر أدنى اشارة الى هذا الذي رويته الآن .

واستبطأت اللحظة التى انفرد فيهابجاك. وكان منعادة زوجتي، وجرترود ، والاطفال ان ينسحبوا مبكرين بعد العشاء ، كى يتركونا نحن الاثنين فتمتد بنا السهرة فى الدراسة الجادة . وكنت انتظر هذه اللحظة . ولـكن عندما الفيتنى نفسى على وشك التحدث اليه احسست قلبى ثقيلا ، وخامرتنىاحاسيس ومشاعر مضطربة بحيث لم اجرؤ ، أو لم اعرف ، كيف افاتحه فى هـــذا الموضوع الذى يعذبنى ...

وكان هو الذى هتك حجاب الصمت معلنا لى انه قرر تمضية عطلة الصيف بتمامها معنا ... مع انه قبل ذلك ببضعة ايام كان قد افضى الينا بمشروع رحلة فى جبال الألب العليا ، وقد وافقت زوجتى كما وافقت انا على هذا المشروع . وكنت أعلم ان صديقة ت... ، الذى وقع عليه اختيـــاره لمصاحبته فى تلك الرحـــلة ينتظره . ولذا بدا لى بكل وضوح ان هذا العدول المفاجىء ليس مقطوع الصلة بذلك المشهد الذى فاجأنى فى الصباح .

وفى بداية الأمر غمرنى شعور بالاستنكار الشــــديد ، بيـــد أنى خشيت اذا ما تركت لنفسى العنان أن ينغلق قلب ابنى دونى نهائيا ، كما خشيت ايضا ان اندم فيما بعد على الأقوال المسرفة فىحدتها ، ولذا بذلت مجهودا كبيرا لضبط نفسى ، وقلت له بلهجة اجتهدت ان تبدو طبيعية للغاية :

ـ كنت اظن ان صديقك ت... يعتمد على مصاحبتك اياه ...
فأجابنى :

ـ أوه ! لم يكن اعتماده على مصاحبتى آياه اعتمادا مطلقا ، ثم انه لن يجد عناء فى العثور على من يحل محلى . وأنا مستمتع هنا بالزاحة كما لو كنت هناك فى تلك البقعة من « الأوبرلنـــد » ، واعتقد بصدق انى مستطيع أن آفيد من وقتى هنا خيرا اعظم من الجرى بين الجبال !

فقلت له :

ـ انت اذن قد وجدت هنا ما يشغلك ؟

فرمقنى شأن من يستشف فى نبرة صوتى شيئا من التهكم ، بيد انه أردف فى غير ارتباك ، لأنه لم يستطع أن يدرك دوافع هـذه النبرة :

ـ انت تعلم اننى كنت دائما افضل صحبة الكتاب على عصا التسلق .

فقلت له وأنا أرمقه مثبتا بدورى نظرى فيه :

ـ اجل ياصـديقى ، ولـكن الا تعتقد ان دروس المصـاحبة الموسيقية اشد اجتذابا لك من القراءة ؟

ولاشك ، انه احس بوجهه يحمر ، لأنه وضع يده أمام جبينه ، شأن من يحمى عينيه من ضوء المصباح ، بيـد انه لم يلبث أن تمالك نفسه ، وقال بصوت كنت اتمنى لو كان أقل ايحاء بثقته بنفسه :

ـ لا تفرط يا ابى فى اتهامى . فلم يكن فى نيتى أن أخفى عنك شيئا ، وما اسبقت الا ببرهة وجيزة ما كنت أتأهب للافضـاء به اليك .

وكان يتكلم بثبات ، كمن يقرأ كتابا مفتوحا ، متمما عباراته بهدوء شديد فيما يبدو ، وكأن الأمر لايتعلق به . فانتابنى تمام الغيـظ لتمالكه نفسه هذا التمالك الخارق .

ولما شعر بأننى اوشك ان اقاطعه رفع يده ، كمن يريد أن يقول



لي : لا ! في وسعك أن تتكلم فيما بعد ، اما الآن فدعني أولا اتم كلامي . بيد اني قبضت على ذراعه وقلت وانا أهزه ، بصـــوت صارخ من فرط الاندفاع :

ـ انه لأفضل عندي الا تقع عيناي عليك بعد الآن ، فذلك خير من ان اراك تحمل الاضطراب الى نفس جرترود النقية الطاهرة . ولست بحاجة الى اعترافاتك . فانه لجبن بشع ان تسيء استغلال عاهتها وبراءتها وسذاجتها ... جبن لم اكن لأصدق انك خليق ان تقدم عليه ! وأن تكلمني عنه بهذا الهدوء البغيض !.. اصغ الي جيدا ! انني مسئول عن رعاية جرترود ، ولن اطيق ولو يوما واحدا بعد الآن أن تـكلمها ، وتلمسها ، وتراها .

فأجابني بلهجته الهادئة نفسها ، تلك اللهجة التي اخرجتني عن طوري :

ـ ولـكن صدقني يا أبي اني احترم جرترود بقدر ما تحترمها انت شخصيا . وانك لتخطيء خطـأ عجيبا ان خطر لك انه يداخلني في هذا الشأن اي عامل مذموم ، لا في سـلوكي معها فحسب ، بل ولا في مقصدي ايضا او اعماق سريرتي . فأنا احب جرترود ، واحترمها احترامها يضـارع حبي اياها . وادخال الاضطراب على نفسها ، وسوء استغلال براءتها وعماها بغيضان الى نفسي مثـل بغضهما الى نفسك .

ثم احتج بأن ما يريد ان يكونه بالنسبة لها أن يغدو لها سندا ، وصديقا ، وزوجا! وانه لم يعتقد انه يجب ان يكلمني في هذا الأمر قبل أن يتخذ قراره بالزواج منها . وان جرترود نفسها لم تعرف بعد هذا القرار ، لانه كان يريد ان يكلمني فيه اولا . ثم اردف قائلا :

ـ وهـــذا هو الاعتراف الذي كنت اريد ان افضي به اليك ، وليس لدي ـ صدقني ـ اي شيء آخر اعترف لك به .

وغمرتني هذه الأقوال بالذهول ، وكنت اسمع ـ وانا اصغى اليه ـ عروق صدغي تنبض بقوة . ولم اكن اعددت له في ذهني

شيئا سوى التقريع ، فلما جردنى كلامه من كل سبب للاستنكار صرت كالمأخوذ ، حتى اذا وصل الى ختام أقواله لم أجد لدى ما أقوله له . وأخيرا ، وبعد فترة صمت غير قصيرة ، قلت وقد نهضت واضعا يدى على كتفه :

ـ هيا بنا الى النوم ، وفى الغد سأقول لك رأيى فى هذا كله .

فقال :

ـ قل لى الآن على الأقل انك لم تعد حانقا على .

فأجبته :

ـ انى بحاجة الى فترة الليل كى أفكر ...

* * *

ولما التقيت بجاك فى اليوم التالى خيل الى فى الحقيقة انى انظر اليه للمرة الأولى . فها هو ابنى لم يعد طفلا ، بل هو شاب . وكنت اذ اعتبرته لم يزل طفلا ارى ذلك الحب الذى اكتشفته شيئا فظيعا .

وكنت قد قضيت الليل فى اقناع نفسى بانه على العكس من ذلك امر طبيعى وسوى جدا . فمن اين واتانى الشعور بأن سخطى عليه قد ازداد حدة ؟ هذا ما لم يتضح لى الا بعد ذلك بقليل ...

وفى الوقت نفسه كان على أن اتحدث الى جاك وابلغه قرارى . وكانت ثمة غريزة لا تقل مضاء عن غريزة الضمير تنبئنى انه لابد لى من الحيلولة دون هذا الزواج بأى ثمن .

وكنت قد أخذت معى جاك الى أبعد مكان فى الحديقة ، وهناك سألته أولا :

ـ هل أعلنت الى جرترود مكنون مشاعرك ؟

فأجابنى :

ـ كلا . ولكن لعلها تشعر فعلا بحبى لها ، بيد انى لم أعترف لها بذلك قط .

فقلت له :

ـ عظيم ! عليك الآن ان تعدنى بألا تكلمها فى هذا الأمر .

ـ ابى ! لقد وعدتك أن اطيعك . ولـكن أليس من الممكن أن اعرف ما لديك من الأسباب ؟

وترددت فى الادلاء اليه بأسبــابى ، فلم أكن ادرى هــل تلك الأسباب التى تواردت لأول وهلة على خاطرى هى عين تلك الأسباب التى ينبغى تقديمها على سواها .

والحق اقول ان الضمير كان مقدما عندى على العقل فيما املاه على من سلوك . واخيرا قلت له :

ـ ان جرترود لم تزل حديثة السن جدا . وتذكر أنها لم تحظ بمراسم « الاشتراك » الـكنسى بعد . وأنت تعلم انها ليست طفلة كسائر الأطفال ، وا أسفاه ! وان تطورها كان معوقا الى درجــة كبيرة ، فلابد أن تكون ـ بسبب ما لديها من الثقة بغيرها وركونها اليهم ـ مفرطة الحساسية لأولى كلمات الحب التى يمكن أن تسمعها ولهذا السبب بالضبط ينبغى الا تقال لها هذه الكلمات . والاستيلاء على من لا يملك الدفاع عن نفسه جبن وخساسة . وأنا أعرف انك لست هذا الجبان . وأنت تقول انه ليس فى مشاعرك نحوها شىء ذميم . اما انا فاقول انها مشاعر آثمة لأنها فجة أو سـابقة لأوانها . ومن واجبنا أن نتحلى من اجل جرترود بالحذر الذى لم يتكون لديها بعد . فهى اذن مسألة ضمير .

ويمتاز جاك بأنه يكفى لـكبحه أن تقال له هذه الكلمات البسيطة:

ـ انى اناشد ضميرك !

وهى عبارة كثيرا ما استخدمتها عندما كان طفلا . ومع هذا كنت انظر اليه ويجول بفكرى ان جرترود لو اوتيت البصر لما فاتها أن تعجب بهذا الجسم الطويل الأملد ، البالغ الاعتدال واللدانة فى آن واحد ، وبهذا الجبين الوضاح الجميل الخالى من التجاعيد ، وبهذه النظرة الصريحة ، وهذا الوجه الذى لم يزل طفليا ، ولـكن يبدو عليه الآن ان سحابة من الجد خيمت عليه فجأة . وكان عارى الرأس ، وشعره الأشهب الطويل يتموج بخفة فوق عارضيه ويكاد يحجب اذنيه .

واستأنفت حديثى اليه وانا أنهض من المقعد الخشبى الذى كنا جالسين فوقه :

ــ وثمة شىء آخر اريد ان اطلبــــه اليك أيضا : كانت لديك ، كما قلت ، نية الرحيل بعد غد ، فأرجو الا تؤجل هذا الرحيل . وكان المفروض أن تظل بعيدا مدى شهر كامل ، فأرجو ألا تختصر من هذه المدة يوما واحدا . مفهوم ؟

ــ ليكن يا أبى ما تريد . سأطيعك .

وبدا لى عندئذ ان لونه شحب غاية الشحوب ، حتى لقد اختفى الدم من شفتيه . بيد انى اقنعت نفسى ان حبه لا يمكن أن يكون بالغ القوة ما دام اذعانه قــــد تم بهذه السرعة ، وغمرنى هــــذا الاقتناع براحة لا توصف ، فقلت له برقة :

ــ هأنذا أجد فيك الابن الذى أحببته !

وجذبته نحوى ، ووضعت شفتى على جبينه ، فبدرت من جانبه اجفالة يسيرة ، ولــكنى لم أشأ ان أتأثر بها .

١٠ مارس

منزلنا من الصغر بحيث نضطر الى حد ما للمعيشة فيه مكدسين ، وهو أمر يضير احيانا ظروف عملى ، وان كنت قد خصصت فى الطابق الأول حجرة صغيرة استطيع الانسحاب اليها كى استقبل فيها زوارى . واجد حرجا عندما اريد على الخصوص أن أتحدث الى احد من ذوى على حدة من غير أن اضفى على هذا الحديث صبغة رسمية جدا ، كما هو الشأن فى تلك الحجرة التى اطلق عليها الأطفال — على سبيل المزاح — اسم «الوادى المقدس» ، فمن المحظور عليهم دخوله .

ولكن فى هذا الصباح بكر جاك بالرحيل الى نيوشاتل حيث ينبغى أن يشترى احذية لرحلته الجبلية . ولما كان الجو جميلا جدا فقد خرج الأطفال بعد الغداء مع جرترود التى يقودونها وتقودهم فى آن واحد . (ويسرنى أن الاحظ فى هذا المقام ان شارلوت شديدة التيقظ لها والاهتمام بها) وهكذا وجدت نفسى بصورة طبيعية جدا وحيدا مع زوجتى اميلى فى وقت تناول الشاى ، الذى نحتسيه دائما فى القاعة المشتركة . وكان هذا ما اتمناه ، لأنى كنت اتعجل الحديث اليها .

وقلما يتفق لى ان اكون معها فى خلوة ، ولذا شعرت بتهيب ، وادخل على نفسى الاضطراب احساسى بأهمية ما أريد قوله لها ، كأنما الأمر متعلق لا باعترافات جاك ، بل باعترافاتى شخصيا . وشعرت كذلك وأنا أهم بالكلام بمدى ما يمكن لكائنين يعيشان على وجه الاجمال حياة واحدة ، ومتحابين ، أن يظلا (أو يصبحا) وكل منهما لغز منعزل بازاء صاحبه . ومن شأن الاقوال ، فى هذه الحالة ، سواء تلك الأقوال التى يوجهها احدنا الى الآخر ، أو تلك التى يوجهها الآخر الينا ، أن تبدو للأسف وكأنها ضربات

مجس تنبينا بمقاومة ذلك الحاجز الذى يفصل بيننا ، والذى لولا التيقظ لـكان خليقا أن تزداد كثافته بمرور الوقت .

وشرعت أتـكلم فقلت لها وهى تصب الشـــاى :

ــ لقدحدثنىجاك أمس مساء ، ثم هذا الصباح عن حبهلجرترود.

وكأن ارتعاش صوتى مكافئا لثبات صوت جاك فى حديثه معى بالأمس .

فقالت لى من غير أن تنظر الى ، مواصلة عملها ، وكأننى أعلن اليها شيئا طبيعيا للغاية ، أو كأننى لا انبيها بشىء تجهله :

ــ لقد احسن صنعا بكلامه معك فى هـــذا الشـــأن .

فواصلت كلامى قائلا :

ــ وحدثنى عن رغبتـــه فى الزواج بها ، وقراره ...

فتمتمت وهى تهز كتفيهـــا قليلا .

ــ كان هـــذا متوقعـــا ...

فقلت لها بشىء من العصـــــــبية :

ــ اذن كنت تشكين فى هذا ؟ ..

ــ كان هذا بسبيله الى الحدوث منذ امد طويل . ولـكن هـذا القبيل من الأشياء لا يعرف الرجال كيف يلاحظونه .

ولمـا كان الاحتجاج فى هـــذا المقـام لا طائل تحته ، ولعـل فى ردها السريع شيئا من الحق ، لذا اعترضت قائلا ببساطة :

ــ فى هـــذه الحالة كان فى وســعك أن تنبهينى .

فافترت عن تلك الابتسامة التى ينكمش لها ركن شفتها ، وهى الابتسامة التى تصاحب أحيانا رغبتها فى التكتم ، فهزت رأســها هزة يسيرة وقالت :

ــ لو وجب اذن أن انبيك بـكل ما لا تعرف كيف تلاحظه ، لـكان ذلك شيئا يطول شرحه !

فماذا كانت تعنى بهذا التعريض ؟ هـــذا ما لم اكن ادريه ، وما لم اكن اسعى لمعرفته ، فتجاوزته قائلا :

ــ نهايته ! كنت اريد أن اسمع منك رأيك فى هـــذا ..

فتنهـــدت ، ثم قالت :

ــ انت تعلم ياصديقى انى لم أقر قط وجود هذه الصبية بيننا.

ووجدت عناء فى كبح ضيقى اذ رايتها تعود بهذه الصـــورة الى المـــاضى ، وواصلت كلامى قائلا :

ــ ليس الأمر متعلقـــا الآن بوجود جرترود معنـــا .

بيد ان اميلى استطردت قائلة :

ــ وكان رايى دائما انه لا يمكن أن يفضى وجـــودها بيننـــا الا الى متاعب .

ورغبة منى فى المصالحة ، تشبثت بعبارتها هذه قائلا :

ــ انت اذن تعدين مثل هـــذا الزواج شيئا مؤسفا . عظيم ! هـــذا هو ما كنت أود ان اسمعك تقولينه . ومن محاسن التوفيق أن نـــكون فى هـــذا على رأى واحد .

واضفت الى هذا ، ان جاك اذعن للأسباب التى افضيت اليه بها عن طيب خاطر ، بحيث لم يعد لديها أى داع للقلق فى هـــذا الشأن ، وان الاتفاق تم بينى وبينـــه على أن ينطلق غداً فى تلك الرحلة التى ستستمر شهرا بتمامه .

وختمت ذلك بقولى :

ولمـــا كنت مهتما مثل اهتمامك بألا يجد جرترود هنا عنـــد عودته ، لذا رأيت أن خير ما اصنعه أن اعهـــد بها الى الآنسة دى لا « م ... » ، حيث يتسنى لى ان أواصل رؤيتها ، فأنا لا اخفى عنك اننى مرتبط ازاءها بالتزامات حقيقية . وقد شرعت من قبل فى جس نبض هـــذه الآنســـة ، التى يسرها أن تفعل مايرضينا . وهكذا تتخلصين من وجود جرترود الذى يثقل عليك ويسخطك . وستعنى لويز دى لا « م ... » بجرترود ، ولاســـيما انها تبدى سرورا بهذا الترتيب ، ويسعدها أن تعطيها دروســـا فى النغم ...

وبدا على اميلى أنها مصرة على الاخلاد للصمت ، فاستطردت :

ــ ولمـــا كان ينبغى تحاشى ذهاب جاك للاجتماع بجرترود هناك،

بعيدا عنا ، لذا اعتقد انه من المستحسن اخبـــــار الآنسة دى لا « م ... » بحقيقة الموقف . أليس هذا رأيك أيضا ؟

وحاولت بهذا الاستفهام أن أحصـــل من اميلى على كلمة ، الا انها ظلت مقفلة الشفتين ، كأنما قد اقسمت ألا تقول شـــيئا ، فواصلت الـكلام ، لا لانه بقى لدى ما اقوله بعد هذا ، بل لاننى لم اطق صمتها :

ـ ثم لعل جاك سيعود من رحلته هذه وقد شـــفى من حبه . وهل فى مثل سنه يعرف المرء حقيقة رغائبه ؟

فقالت أخيرا ، بلهجة غريبة :

ـ أوه ! بل ان المرء لا يعرفها دائما بعد هذه السن !

فضايقتنى لهجتها الغامضة الوعظية ، لأن طبيـــعتى المسرفة فى الصراحة لا تستريح الى الغموض ، فرجوتها أن تشرح ما تضمره بمثل هذا الـكلام ، فقالت بأسى :

ـ لا شيء ياصديقى . كل ما هناك انى كنت افكر فحسب انك منذ قليل كنت تتمنى أن ينبئك المرء بما لم تتمكن من ملاحظته .

ـ ثم ماذا ؟

ـ لذا قلت فى نفسى انه ليس من السهل ان يقال لك مالم تلاحظه.

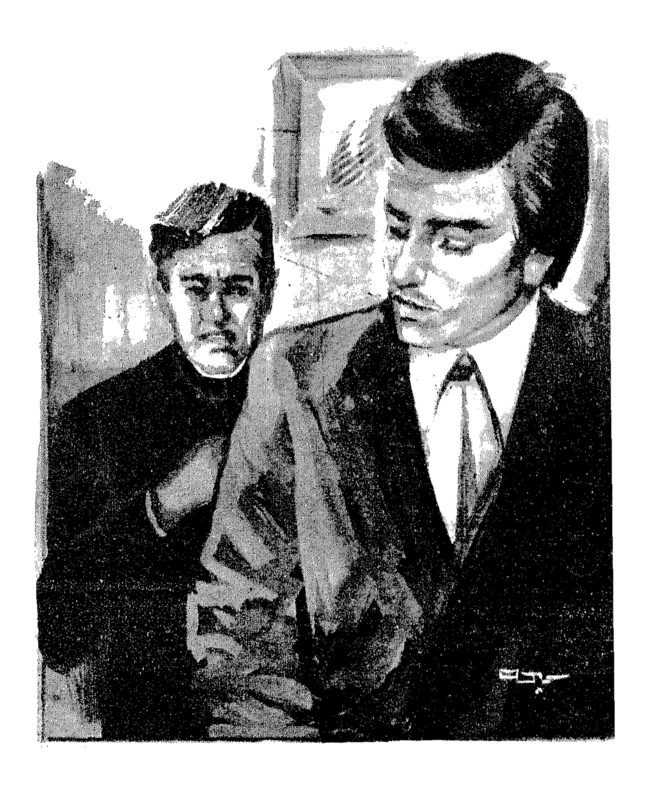
وقد قلت انى افزع من الغموض، وكذلك انا ـ من حيث المبدأ ـ ارفض التعامل بالتلميحات والتعريض ، فقلت لها بلهجة لعلها كانت مسرفة فى العنف ، بحيث ندمت عليها بعد ذلك ، لانى رايت شفتيها ترتجفان لحظة :

ـ عندما تريدين لى أن افهمك ، فعليك ان تحاولى الافصاح عن افـكارك بمزيد من الوضوح !

فأشاحت عنى برأسها، ثم نهضت ومشت بضع خطوات مترددة ، كالمترنحة فى الحجرة ، فهتفت بها :

ـ اميلى ! لـــماذا تمضين فى تكدير خاطرك ، وقد اصلحنا الآن كل شيء ؟

واحسست ان نظرتى تجرحها ، فقلت لها وقد ادرت نحوها ظهرى،



معتمدا بمرفقى على المائدة ، وقد اسندت راسى الى راحة يدى :
ــ لقد كلمتك منذ لحظة بقسوة . عفوك اذن .

وعندئذ سمعتها تدنو منى ، ثم أحسست أناملها تستقر برفق فوق جبينى ، وهى تقول بصوت رقيق حنون يفيض بالدموع :
ــ ياصديقى المسكين !

ثم غادرت الحجرة على الفور .

* * *

واتضحت فى ذهنى بعد قليل عبارات اميلى التى كانت قد بدت لى غامضة فى حينها ، وقد ذكرتها هنا على نحو ما بدت لى عندئذ ، وفى ذلك اليوم فقط أدركت انه حان الوقت لرحيل جرترود عنا .

١٢ مارس

كنت قد فرضت على نفسى تخصيص فسحة صغيرة من الوقت لجرترود فى كل يوم . وكانت هـذه الفسحة من الوقت تتراوح طبقا لمشاغل كل يوم على حدة ما بين بضع ساعات وبضع لحظات .

وفى غداة اليوم الذى جرى فيه هذا الحديث مع اميلى وجـدت عندى فراغا كافيا ، وكان الجو جميـلا يدعو للنزهة ، واخـذت جرترود عبر الغـابة ، الى ذلك المنعطف من « الجورا » ، حيث تتكشف أمام النظر ـ من خلال ستار الأغصان ـ عندما يكون الجو رائقا صحوا ، روعة جبال الألب البيضاء ، بارزة فوق سحابات الضباب الخفيف .

وكانت الشمس قد شرعت فى الانحدار عن شمالنا عندما وصلنا الى ذلك الموضع الذى تعودنا أن نجلس فيه ، حيث تنحدر تحت أقدامنا مروج من العشب القصـير الغزير معا ، وعلى مبعدة منا ترعى بضع أبقار ، تحمل كل بقرة منها فى عنقها ناقوسا صغيرا ، على المعهود فى تلك القطعان الجبلية .

وقالت جرترود وهى مصغية لصليلها :

ــ انها ترسم أبعاد المنظر .

وطلبت الى ، كعادتها فى كل نزهة ، أن أصف لها الموضع الذى توقفنا عنده ، فقلت لها :

ــ ولـكنك تعرفينه من قبل . انها الحافة التى يرى المرء منها جبـال الألب .

ــ أهى ظاهرة اليوم للنظر تماما ؟

ــ ظهورا يبرز بهاءها على أتمه .

ــ سبق لك أن قلت لى انها تبدو فى كل يوم مختلفة بعض الشىء .

ــ بأى شىء أشبهها لك اليوم ؟ بالظمأ فى أوج يوم صائف . وقبل

حلول هذا المساء ستبدو كما لو كانت قد تلاشت فى الهواء !

ـ اريد منك أن تقول لى اتوجد زنابق فى المرج الكبير الذى امامنا ؟

ـ كلا ياجرترود ، فالزنابق لا تنمو فى هذه الأعالى ، او على الأقل لا تنمو فيها الا انواع نادرة منها .

ـ غير تلك التى يدعونها « زنابق الحقل ؟ » .

ـ ليست فى الحقل زنابق .

ـ ولا فى الحقول المحدقة بنيوشاتل ؟

ـ لا توجد زنابق حقل .

ـ اذن لماذا يقول لنا السيد المسيح : «انظروا الى زنابق الحقل؟»

ـ لاشك انها كانت موجودة فى زمنه ، مادام قد قال هذا ، ولكن الزراعة التى استحدثها البشر قضت عليها .

ـ اذكر انك كثيرا ما قلت لى ان أعظم ما تحتاج اليه هذه الأرض هو الايمان والمحبة . افلا ترى ان فى وسع الانسان بمزيد من الايمان أن يراها من جديد ؟ اما انا فأؤكد لك اننى حين أسمع هذه الآية ارى تلك الزنابق . وسأصفها لك . أتريد أن أصفها لك ؟ لكانها اجراس من لهب ، اجراس كبيرة لازوردية حافلة بعبير المحبة ، تؤرجحها رياح المساء . فلماذا تقول لى أذن انها غير موجودة أمامنا ؟ انى أحسها واشمها ! وارى المرج حافلا بها .

ـ انها ليست أجمل مما ترينها ياجرترود .

ـ قل لى انها ليست اقل جمالا مما أراها .

ـ انها فى مثل الجمال الذى ترينها به .

فقالت عندئذ مستشهدة بأقوال السيد المسيح فى بشارة متى :

ـ « انى أقول لكم ان سليمان نفسه فى ابهى مجده لم يلبس مثل زنبقة منها » .

وبدا لى وانا اسمع صوتها الرخيم يلقى هذه الآية ، أننى اصغى لها لأول مرة .

وعادت تكرر وهى تتامل الكلمات :

ـ فى ابهى مجـــــــده !

ثم ظلت صـــــــامتة برهة ، فقلت لها :

ـ لقـــــد قلت لك ياجرترود : ان من لهم عيون هم الذين لا يعرفون كيف ينظرون .

ومن أعماق فؤادى سمعتنى أرفع هـــــذه الضراعة :

ـ اجمدك يارب لانك كشفت للمتواضعين ماحجبته عن الأذكياء .

فهتفت جرترود عندئذ فى نشوة عارمة :

ـ آه لو كنت تدرى كيف اتخيل هذا كله فى سهولة ويسر ! اتحب ان أصف لك المنظر ؟.. هناك ، من خلفنا ، من فوقنـا ومن حولنا ، اشــجار التنوب ، ذات الطعم الراتنجى ، والجذع العقيقى ، والاغصان الطويلة القاتمة الافقية التى تئن عندما تحنيها الرياح : وتحت أقدامنا ، كـكتاب مفتوح فوق منحدر الجبـل يمتد المرج الأخضر المتباين الالوان ، الذى يضرب فى الظـل الى الزرقة ، ويغدو ذهبيا فى ضوء الشمس . وكلمات هذا الـكتاب المتميزة نثار الأزهار المختلفة ... ومنها الجنتيانا وزنابق سليمان الجميلة ، وتاتى الابقار لتتهجى هذه الـكلمات باجراسها ، وتاتى الملائـكة ايضا لتطالعها ، ما دامت عيون البشر مغلقة كما تقول . واسفل الـكتاب ارى نهرا عظيما من اللبن الذى يتصـــاعد منه الدخان والضباب فيغطى هاوية سـحيقة من الأسرار . وهو نهر شاسع ليس له شاطىء آخر سوى جبـال الالب الجميلة المتالقة الباهرة التى تبدو أمامنا عن بعد ... والى هناك سـوف يذهب جاك . الا قل لى : أراحل هو حقا الى هناك غدا ؟

ـ سيرحل غدا . أقال لك هــذا ؟

ـ لم يقله لى ، ولـكنى فهمته ضمنا . أيظل غائبا هناك أمدا طويلا ؟

ـ سيظل هناك شهرا ... وكنت اريد ياجرترود ان أسالك :

لمـاذا لم تذكرى لى انه كان يحضر للقائك فى الـكنيسة ؟ ..

ـ لقد جاءنى هناك مرتين... أوه ! لا اريد أن أخفى عنك شيئا



ولكنى خشيت أن أسبب لك المـــا .

ـ بل انت تؤلميننى بعـــدم ابلاغى ذلك .

فبحثت يدها عن يدى وقالت :

ـ كان حزينـــا لرحيـــــله .

ـ خبرينى ياجرترود ... أقال لك انه يحبــــــك ؟

ـ لم يقل لى ، ولكنى أحس هذا من غير حاجة الى تصريح . وهو لا يحبنى بقـــــــدر ما تحبنى أنت .

ـ وأنت ياجرترود ، اتتألمين لرحيـــــله ؟

ـ بل احسب من الخير أن يرحل . فلم استطيع مجاوبته .

ـ ولكن خبـــــرينى : أتتألمين لرحيله ؟

ـ انت تعلم جيدا انك انت من احبه أيها الراعى (القس)... اوه ! لماذا تسحب يدك من يدى ؟ ما كنت لأتحدث اليك بهذه الصورة لو لم تكن متزوجا . ولكن المرء لا يتزوج مكفوفة . فلماذا اذن لايمكننا أن نتحاب ؟ قل لى أيها الراعى : أو ترى ذلك شرا ؟

ـ ليس فى المحبـــــة شر اطـــلاقا .

ـ وانا لا أحس فى قلبى الا بكل ما هو خير . ولا أود أن أولم جاك . لا اود ان اولم احدا ... لانى لا اريد ان امنح شــيئا سوى السعادة للجميع .

ـ كان جاك يفكر فى طلب يدك ؟

ـ اتدعنى اتحدث اليه قبل رحيله ؟ اتمنى أن أفهمه انه ينبغى ان يتخلى عن حبى . انك تدرك أيها الراعى اننى لا استطيــع أن اتزوج احدا . أليس كذلك ؟ ستدعنى اتحدث اليه ، أليس كذلك ؟

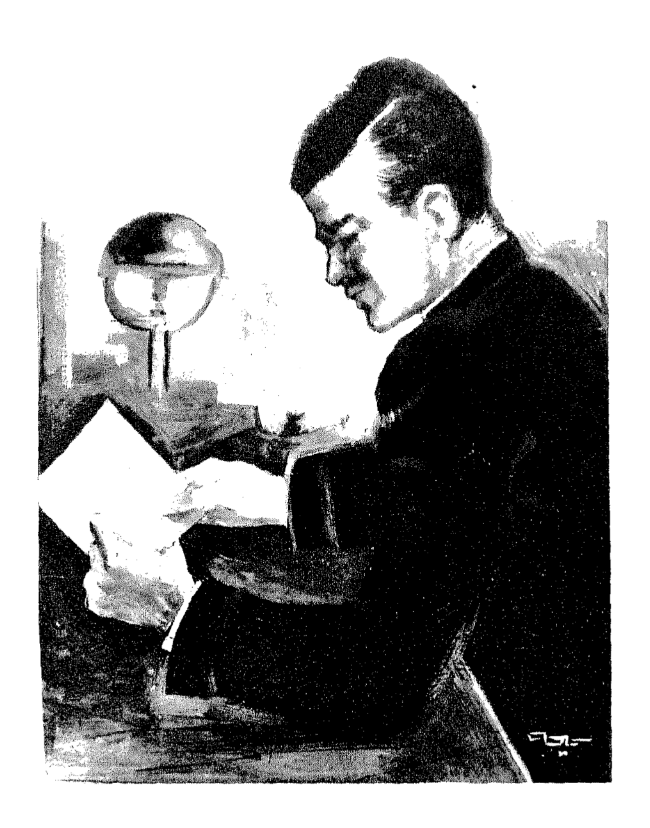
ـ ليكن ، فى هــــــذا المساء .

ـ كلا . بل غدا ، فى لحظة رحيــــــله نفسها ...

* * *

وكانت الشمس تغرب فى بهاء رائع ، وكان الهواء دافئا ، فنهضنا وسلكنا ونحن مسترسلون فى الكلام طريق العودة المعتم .

الكراسة الثانية



٢٥ ابريل

اضطررت لترك هذه الكراسة بعض الوقت

لقد ذاب الثلج اخيرا ، وبمجرد عودة الطرق سيرتها الأولى ، وصار فى وسع الناس سلوكها ، تحتم على الوفاء بعدد كبير من الالتزامات التى كان قد وجب على تأجيلها طوال الوقت التى ظلت فيه قريتنا حبيسة بالحصار الذى ضربه الثلج عليها . وبالأمس فقط استطعت ان احظى ببضع لحظات من الفراغ .

وفى الليلة الماضية اعدت تلاوة كل ما كنت قد كتبته هنا ...

واليوم اجرؤ على تسمية شعور قلبى الذى ظل وقتا طويلا جدا غير معترف به باسمه الحقيقى ، لا اكاد اتبين أو افسر كيف امكن ان اظل حتى وقتنا هذا مخدوعا فيه ، وكيف ان اقوالا معينة فاهت بها زوجتى اميلى ، ورويتها هنا ، بدت لى غامضة ، وكيف امكننى بعد تصريحات جرترود الساذجة أن اظل متشككا فى حقيقة انى احبها .

ذلك انى لم اقبل اطلاقا فى ذلك الحين الاعتراف بحب مسموح به خارج رباط الزوجية ، وفى الوقت نفسه لم اقبل الاعتراف بوجود اى شائبة من التحريم فى الشعور الذى يعطفنى بقوة وحرارة نحو جرترود .

وكانت سذاجة اعترافاتها وصراحتها نفسها مبعث طمانينتى . وكنت اقول لنفسى : انها طفلة ، ولا يمكن ان يوجد حب حقيقى بدون ارتباك وحمرة خجل . ومن جهتى كنت اقنع نفسى انى احبها على نحو ما يحب المرء طفلا عاجزا أو معاقا . وكنت اعنى بها كما يعنى المرء بمريض ، وحولت الانعطاف والانجذاب الى التزام خلقى والى واجب .

اجل ، الحق انى فى ذلك المساء نفسه الذى حدثتنى فيه على

النحو الذى دونته هنا ، شعرت بروحى بالفة الخفة والفرح حتى لقد انخدعت عن أمر نفسى مرة اخرى وانا أسجل هذه الأقوال .
ولما كنت أعتقد ان الحب شىء ذميم ، وان كل ما هو ذميم لابد حتما أن يكون وقرا ثقيلا تنوء تحته الروح ، ولم أشعر حينئذ بأى عبء ترزح تحته روحى ، لذا لم أعتقد ان هذا الشعور الذى أحسه هو الحب .

وقد ذكرت هنا هذه الأحاديث التى جرت بيننا لا كما وقعت بتمامها فحسب ، بل وكان ذهنى خاليا من حقيقة عواطفى وأنا أدونها ، فالحق اننى لم أدرك هذه الحقيقة الا وأنا أعيد فى ليلتى هذه قراءة جميع ما دونت .

* * *

وما أن رحل جاك ــ الذى كنت قد تركت جرترود تحادثه ، بحيث لم يعد الا فى الأيام الأخيرة المتبقية من العطلة ، متعمدا تجنب جرترود ، أو عدم التحدث اليها الا أمامى ــ أقول انه ما أن رحل جاك فى ذلك اليوم البعيد حتى استردت حياتنا سياقها الهادىء جدا . وكانت جرترود ــ طبقا لما اتفقنا عليه ــ قد أقامت لدى الآنسة لويز ، حيث كنت اذهب لرؤيتها فى كل يوم ، بيد اننى ــ تحسبا من الحب ــ كنت اتعمد الا اتحدث معها فى أى موضوع يمكن أن يحرك مشاعرنا . فلم أعد أكلمها الا بصفتى الراعى (القس) ، وغالبا ما يتم هذا فى حضور لويز ، موجها عنايتى على الخصوص الى تعليمها الدينى ، كى أعدها لطقوس « الاشتراك » الكنسى ، الذى أقدمت عليها فعلا فى عيد القيامة.

وفى يوم عيد القيامة تقدمت انا ايضا وتناولت « الاشتراك » الكنسى .

وقد انقضى على هذا خمسة عشر يوما . وادهشنى ان جاك ، الذى جاء لتمضية أسبوع من العطلة معنا ، لم يصحبنى أمام المائدة المقدسة . وكم يؤسفنى أن اضطر للقول بأن زوجتى اميلى تخلفت أيضا عن ذلك لأول مرة منذ زواجنا ، وبدا لى انهما



كليهما تواطئا واتفقت كلمتهما بهذا التخلى عن ذلك الالتقاء المهيب على القاء الظلال على فرحتى القلبية .

وهنـــا ايضا أسعدنى أن جرترود لا تستطيع أن ترى ما يدور حولها ، بحيث تسنى لى أن أتحمل وحدى ثقل هذه الظلال .

ولى من معرفتى الثاقبة بزوجتى اميلى ما يجعلنى أتبين كل ما ضمنته مسلكها هذا من لوم غير مباشر لى ، فلم يحدث منهـــا قط انها عارضتنى معارضة صريحة سافرة ، بل تصر على اظهار اعتراضاتها بضرب من العزلة التى تضربها من حولى .

وقد تأثرت جدا الآن حنقا من هذا القبيل ــ على شدة نفورى من النظر فى أمره ــ قد استطاع أن يؤثر فى روح اميلى بحيث يحيد بها عن رعاية مصالحها الروحية (الدينية) العليا . وما ان عدت الى البيت حتى رحت أصلى من أجلهـــا من أعماق قلبى باخلاص شـــــديد .

* * *

أما امتناع جاك من تناول الشركة المقدسة فكان مرجعه الى دواع اخرى اتضحت لى من حــديث جرى بينى وبينه بعد ذلك بأمد قصيـــر ...

٣ مايو

بسبب اهتمامى بتعليم جرترود اصـــــول الديانة اعدت قراءة الانجيل بنظرة جديدة . وبذلك اخذت تتضح لى وتبرز أمامى فكرة مؤداها ان عدداً من المعانى التى يتكون منها ايماننا المسيحى ليس مصدره اقوال السيد المسيح ، بل تعليقات القديس باولس .

وكان هـــذا بالذات محور المناقشة التى دارت اخيرا بينى وبين جاك . فلأن مزاجه جاف بعض الشىء ، لا يمد قلبه تفكيره بغذاء كاف ، ولذا غدا تقليديا ودجماطيقيا . وصار يلومنى لأننى أختار من العقيدة المسيحية « مايروقنى » . بيد انى لا أختـــار هــذا القول او ذاك من أقوال السيد المسيح ، وكل ما هناك اننى حين اجدنى بصدد الاختيار بين المسيح والقديس باولس ، لا اتردد فى اختيار المسيح . اما هو ، فخوفا من الوقوع فى التقابل بينهما ، يأبى ان يفصل احدهما عن الآخر ، ويأبى أن يستشعر بينهما فرقا فى الالهام ، ويحتج على اذا انا قلت له اننى ها هنا أستمع لانسان ، ولـكننى هناك أصغى لصوت الله . وكلما امعن فى الجدال زادنى اقتناعا بانه ليس حساسا على الاطلاق للهجة أو النبـــرة الالهيـــة الخالصة فى ايسر أقوال المسيح .

وانى لأبحث فى الانجيل كله ، وعبثا ابحث ، عن وصية ، أو نذير ، أو وعيد ، أو تحريم ... فذلك كله مصـــدره القديس باولس . وعدم وجود شىء منه فى أقوال السيد المسيح هو بالضبط ما يضيق به جاك . والأرواح التى من قبيل روحه تعتقـــد أنها ضائعة ضالة عندما لا تجد عن كثب منها الأوصـــياء والأســـوار وحراس المخبولين .

يضاف الى هذا ان امثاله لا يتسامحون فيما يجدونه لدى الغير من حرية تنازلوا هم عنها ، ويشتهون الحصول عنوة على كل ما

يستعد سيراهم لمنحهم اياه بدافع المحبة .

وقال لى :

ــ ولكنى انا ايضا يا أبى اتمنى سعادة الارواح والأنفس .

ــ كلا ياصديقى ، بل أنت تتمنى اذعانها وخضوعها .

ــ ولكن السعادة فى الخضوع والاذعان .

وتركت له الكلمة الأخيرة لأننى لا أحب اللجاجة فى الجدال ، ولكنى اعرف تمام المعرفة ان المرء يعرض السعادة للخطر بسعيه للحصول على ما ينبغى ، بالعكس ، الا يكون الا ثمرة للسعادة ، واعرف ايضا تمام المعرفة انه ان صح ان النفس المحبة تبتهج بخضوعها الارادى ، فصحيح أيضا انه ما من شىء يجافى السعادة ويجانبها مثل الاذعان والخضوع بغير محبة .

ومع ذلك يحسن جاك التفكير والاستدلال . ولولا انه آلمنى أن الفى لدى شاب حديث السن جدا مثله كل هذا الجفاف أو التصلب المذهبى ، لكنت خليقا بلا مراء أن أعجب بجودة حججه وتماسك منطقه .

وانه ليبدو لى أحيانا كثيرة اننى أكثر منه شبابا ، واننى أصغر سنا منى بالأمس ، وأعددت على نفسى هذهالعبارة المقدسة :

ــ ما لم تصيروا مثل الأطفال الصغار ، فلن تدخلوا ملكوت السماء !

أمن الخيانة للمسيح ، وتدنيس انجيله ، أن نرىَ فيه على الخصوص منهجا للوصول الى الحياة المطوبة المغبوطة ؟ أن حالة الفرح التى تعوقها شكوكنا وقساوة قلوبنا حالةحتمية للمسيحى، فكل كائن قادر على الفرح قدرة متفاوتة ، وعلىكل كائن أن يسعى الى الفرح . وابتسامة جرترود فى حد ذاتها تعلمنى فى هذا الشأن اكثر بكثير مما تعلمها دروسى .

وانتصبت فى مواجهتى مضيئة مشرقة كلمة السيد المسيح :

ــ ان كنتم عميانا فلن تكون لكم خطيئة .

فالخطيئة هى ما يعتم الروح ، وما يضاد الفرح . وسعادة

جرترود الـكاملة التى تشع من كيانها كله نابعة من انها لم تعرف الخطيئة قط ... فليس فيها شيء سوى النور أوالوضوح والمحبة.

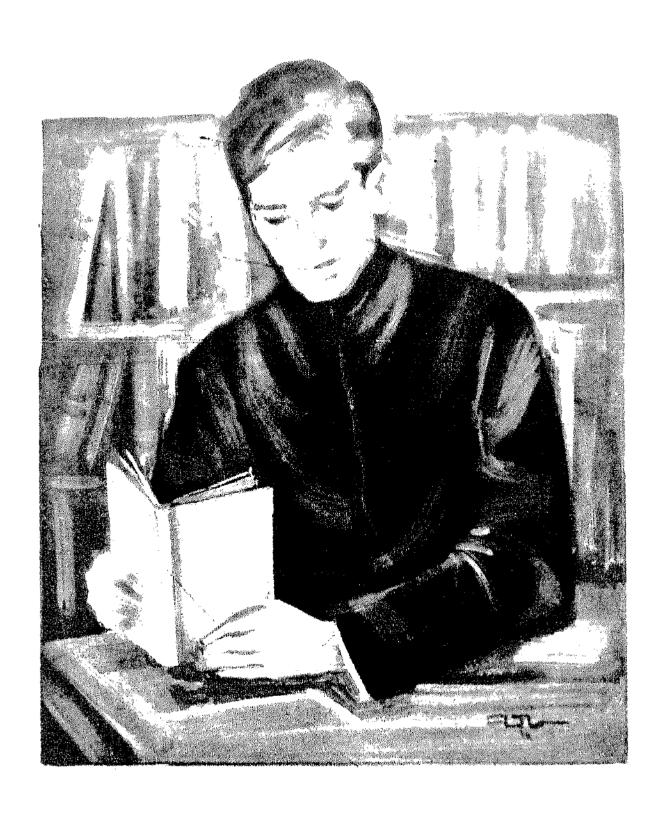
* * *

وقد وضعت بين يديها اليقظتين الأناجيل الأربعة ، والمزامير ، وسفر الرؤيا ، ورسائل يوحنا الثلاثة التى تستطيع أن تقرأ فيها : « الله نور وليست فيه ظلمة البتة » ، وكذلك يمكنها أن تسمع فى انجيله صوت المخلص يقول :

ــ انا نور العالم ، ومن معى لن يسير فى الظلمات .

وامتنعت عن اعطائها رسائل باولس ، لأنها أن كانت وهى العمياء لا تعرف الخطيئة البتة ، فأى جدوى لاقلاق روحها حين أدعهـا تقرأ فيها ، ضمن رسالته الى أهل رومية ٧ : ١١ :

ــ الوصية اتخذت من الخطيئة سبيلا فأغوتنى وأماتتنى ! وما يتلو ذلك من جدل ، مهما تـكن براعته ؟



٨ مايو

حضر الدكتور مارتن بالأمس من « شــودى فون » ، وفحص عينى جرترود طويلا بالمنظار الرمدى ، وقال لى انه تحدث فى شأن جرترود الى الدكتور «رو» الأخصائى بلوزان ، وسيبلغه بمشاهداته وملاحظاته . وهما يريان انه من الممكن اجراء جراحة لجرترود ، بيد أننا اتفقنا على الا نفاتحها فى شيء من هــذا ما لم نصل الى يقين جازم وسيعود « مارتن » ليخبرنى بنتيجة تشاورهما . فما جدوى اذكاء آمال لدى جرترود قد نضطر الى اخمادها بعد هذا ؟

ثم ... أو ليست جرترود سعيدة هكذا ؟ ..

١٠ مايو

فى عيد القيامة (الفصح) تقابل جاك وجرترود ، فى حضورى. او على الأقل رأى جاك جرترود وكلمها ، ولكن حديثه اليها لم يتجاوز أمورا لا اهمية لها . وبدا فى هذا اللقاء أقل انفعالا مما كنت أخشى . واقتنعت مرة اخرى بأنه لو كان متقد العاطفة حقا لما كان ـ به اياها خليقا أن يختزل ويقل حجمه بمثل هذا اليسر، وان كلا منت ـ ترود قد صارحته ، قبل رحيله فى العام المنصرم ، بأن هذا الحب ينبغى أن يظل بلا أمل .

ولاحظت انه يخاطب جرترود الآن بضمير الجمع ، وهذا مستحسن بلا شك ، ولم أكن قد طلبت ذلك اليه ، فسرنى انه أدرك من تلقاء نفسه . ففيه بلا مراء خير كثير .

بيد انى أحسب ان هذا الاذعان من جانب جاك لم يتم له بدون صراعات نفسية واخذ ورد . ولكن المؤسف فى هذا ان القسر الذى فرضه على فؤاده يبدو له الآن خيرا فى حد ذاته ، ولذا يتمنى أن يراه مفروضا على الكافة . وقد شعرت بهذا فى تلك المناقشة التى جرت أخيرا بينى وبينه ، والتى اوردتها آنفا :

أو لم يكن روشفوكو هو القائل ان الذهن كثيرا ما يكون فريسة لخداع القلب ؟.. وغنى عن البيان اننى لم أجسر على ابداء هذه الملاحظة لجاك على الفور ، لمعرفتى بمزاجه ، وانه من تلك الأمزجة التى لا تزيدها المناقشة الا اصرارا ولجاجة فى الوجهة التى مضت فيها . الا انى فى ذلك المساء نفسه وجدت فى رسائل القديس باولس بالذات (فلم يكن بوسعى أن أهزمه الا بأسلحته) ما أرد به عليه ، فعنيت بأن اترك فى حجرته قصاصة كان بوسعه أن يقرأ فيها :

ـ وعلى الذى لا يأكل من كل شىء الا يدين من يأكل من كل

شيء ، فان الله قد تقبله (الرسالة الى اهل رومية ١٤ : ٣)

وكان في وسعي ايضا أن أكتب له مايتلو ذلك من قوله (١٤ : ١٥) :

ـ اني عالم علم اليقين ، من الرب يسوع ، الا شيء نجس في حد ذاته ، ولكن من عد شيئا نجسا كان له نجسا .

ولكني لم أجرؤ على ذلك ، لأني خشيت ان يحسب جاك انني اكن من نفسي بازاء جرترود تأويلا مسيئا ، فهذا ما ينبغي أن يخطر اطلاقا بباله . وما أكثر المواضع الأخرى من الكتاب المقدس التي تحتمل معنى مزدوجا أو ثلاثيا (انكانت عينك تعثرك . . . وتضاعف الخبزات ، ومعجزة عرس قانا ، وما الى ذلك) ، وليس المجال مجال شحناء ومجادلة ، فمغزى هذه الآية واسع وعميق ، فالحظر ينبغي الا يكون محلي من جانب الشريعة ، بل من جانب المحبة ، ولذا نجد القديس باولس يهتف في أعقاب هذه الآية مباشرة (١٤ : ١٦) :

ـ فاذا احزنت اخاك بتناول طعام ، فلست تسلك سبيل المحبة .

فالشيطان (الشرير) لايهاجمنا الا من جهة نقص المحبة . فيا الهي ! انزع من قلبي كل ما لاينتمي الى المحبة . . . ذلك اني اخطأت باستشارة جاك ، ففي اليوم التالي وجدت على مكتبي القصاصة بعينها التي دونت فيها الآية من رسالة القديس باولس الى أهل رومية ، وقد دون جاك على ظهرها ببساطة تلك الآية الأخرى من نفس الاصحاح (الفصل) :

فلا تعرض للهلاك بطعامك من مات المسيح لأجله (١٤ : ١٥)

فأعدت بعدها قراءة الاصحاح (الفصل) الرابع عشر مرة أخرى باسره . انه منطلق نقاش لانهاية له . أأنا خليق ان أعتم بهذه الغيوم سماء جرترود المشرقة ، واعذبها بهذه البلبلات ؟ . .

أو لست اقرب الى المسيح عندما اعلمها ، وأدعها تعتقد ، ان الخطيئة الوحيدة انما هي تلك التي تنتقص من سعادة الآخرين ، او تعرقل سعادتنا نحن ؟

وا اسفاه ! ان بعض النفوس تظل عصية على السعادة بوجه

خاص ، عاجزة عن تقبلها . واني افكر اذ اقول هـذا في زوجتي اميلي . فأنا ادعوها للسعادة بلا توقف ، واحضها عليها واتمنى لو قسرتها عليهـا . اجل اني اتمنى لو ارتفعت بالجميع الى الله ، ولـكنها تتملص من ذلك بلا انقطاع ، وتتوارى وتنغلق على نفسها ، كتلك الفصائل من الازهار التي لا تتفتح في ضوء اي شمس ، بل كل ما تراه يثير قلقها ويكربها .

ومنذ ايام قالت لي اميلي :

ــ وماذا تريد ياصديقي ؟.. ان الله لم يكتب لي أن اكون عمياء !

آه ! كم يؤلمني تهكمها ، وما أحوجني الى الفضيلة حتى لا أدع هذا التهكم يثير اضطرابي وينقصني ! ولابد انها تدرك مع هذا ــ فيما يبدو لي ــ ان هذا التلميح الى عاهة جرترود من شأنه أن يجرحني بصفة خاصة . ويشعرني أيضا بأن ما اعجب به بصفة خاصة لدى جرترود ، انما هو وداعتها التي لا حد لها : فأنا لم اسمعها قط تبدى أدنى حفيظة ضد الآخرين . والحق أيضا انني لا ادعها تعرف شيئا عما يمكن أن يجرحها .

وكما ان النفس السـعيدة تشيع ، بما تشعه من المحبـة ، والسعادة فيما حولها ، كذلك كل ما يحيط بأميلي يتحول الى ظلمة وكآبة . فكأنما تبث روحها اشـعاعات سوداء . فعندما اعود مع حلول الظلام ، بعد يوم من العناء والـكفاح وزيارة الفقراء والمرضى والمـكروبين ، وقد نال مني الاعياء احيانا ، وفاض قلبي بالحاجة الى الراحة والحنان والدفء ، عندئذ كثيرا ما لا أجد في بيتي شيئا سوى الهموم والمهاترات والتلاحي ، حتى اني أوثر على هـذا كله البرد القارس والريح والمطر في خارجه .

واعرف جيدا ان خادمتنا العجوز روزالي تتظاهر بأنها لاتتصرف ابدا الا كما يروقها ، ولـكنها ليست دائما على خطـأ ، وكذلك اميلي ليست دائما على حق عندما تريدها على الاذعان لرأيها . واعرف جيدا أن شارلوت وجاسبار مزعجان جدا ، ولـكن الا يمكن لأميلي أن تحصل منهما على مزيد من الجهد اذا هي قللت من صياحها

وملاحقتها لهما ؟ ان كثرة الوصايا والمواعظ ، والتوبيخات ، تفقدها كل ما لها من تاثير ، فتصبح مثل الحصى الملقى على الشطئان ... فالأطفال اقل انزعاجا بها مني . وأنا أعرف ان الصغير كلود يعاني من ظهور أسنانه (أو هذا على الأقل ما تذهب اليه أمه كلما شرع في الصراخ) ، ولكن اليست تدعوه الى الصراخ كلما هرعت على الفور ـ هي او سارة ـ اليه لهدهدته بلا انقطاع ؟ انى لعلى قناعتى بأن صراخه خليق أن يقل تواتره لو انه ترك عدة مرات يصرخ ما شاءت له نفسه أن يصرخ ، عندما لا اكون في البيت . ولكنى أعلم تمام العلم انهما تهرعان اليه بصفة خاصة عندما لا أكون موجودا.

ان سارة تشبه أمها ، ولهذا السبب كنت أريد أن ألحقها بالقسم الداخلي في المدرسة ، ولكنها ـ للأسف ـ لا تشبه اطلاقا ماكانت عليه امها وهي في مثل سنها ، اي عندما عقدت خطبتنا ، بل تشبها في صورتها التى صيرتها اليها الهموم والحياة المادية ، وكدت اقول ما صيرها اليه استزراع هموم الحياة واستنباتها (لأن اميلى تقوم قطعا باستنباتها !)

اجل انى يقينا اجد عناء فى التعرف فيها اليوم على ذلك الملاك الذى كان يبتسم فى ذلك الحين ابتهاجا بكل حركة نبيلة تصدر عن فؤادي ، والذى كنت أحلم بأن يشاركنى حياتى مشاركة لا انفصام فيها ، والذى كنت أراه يسبقنى ويرشد خطواتى نحو النور ... أم لعل الحب فى ذلك الحين كان يزيغ بصرى ويضللنى ؟ فأنا لا اكتشف في سارة الا الشواغل المبتذلة العامية ، فهى على منوال امها تدع نفسها تهتم وتقلق للهموم الحقيرة دون سواها ، وملامح وجهها نفسها ، وهى ملامح لا تفيض بالروحانية المنبعثة من أى شعلة داخلية ، متجهمة دائما ، وكالمتصلبة . وليس لديها أى تذوق لشعر ، ولا للقراءة بوجه عام ، ولا اقع اطلاقا بينها وبين امها على حديث يمكن ان أتمنى المشاركة فيه ، واشعر فى قربها بآلام العزلة اكثر مما اشعر بها عندما أعتكف فى مكتبى ، بحيث ازداد تعودى على هذا الاعتكاف فى مزيد من الأحيان .

وقد تعودت أيضا ، منذ الخريف ، وشجعتنى على ذلك سرعة حلول الليل ، ان اذهب كلما سمحت لى بهذا دوراتى وطواف ، أى كلما تسنى لى أن أعود مبكرا ، فأتناول الشاى لدى الآنسة دى لا « م ... »

وكانت الآنسة دى لا « م ... » قد استضافت منذ شهر نوفمبر الماضى مع جرترود ثلاث مكفوفات كان الدكتور مارتن قد اقترح أن يعهد اليها بهن ، وتقوم جرترود بتعليمهن القراءة ، والأشغال الدقيقة المتباينة ، وقد اظهرت الفتيات الثلاث الصغيرات براعة فى هذا كله .

وياله من راحة وياله من ترويح لى كلما عدت الى هذا الجو الدافىء الذى يشيع فى تلك الدار « لاجرانج » ، وما اعظم ما أحرم منه ان اقتضت الظروف أحيانا أن اظل يومين أو ثلاثة ايام من غير ذهاب الى هناك .

وغنى عن البيان ان الآنسة دى لا « م ... » قادرة على ايواء جرترود والفتيات الثلاث الصغيرات ، من غير ان يثقل هذا عليها او يبهظها الانفاق عليهن . وتساعدها فى العناية بهن ثلاث خادمات بكل همة واخلاص ويجنبنها كل تعب ومشقة . أفيمكن اذن ان يقال انه ثمة من هو أجدر منها بالجاه والثراء والفراغ ؟

ولقد كانت لويز دى لا « م .. » مهتمة منذ حداثتها كل الاهتمام بالفقراء ، فهى ذات نفس عميقة التدين ، بحيث يبدو عليها انها تروض نفسها على الحياة فى الأرض لا لشىء الا لهدف المحبة . وبرغم شعرها الذى صار كله تقريبا فضى اللون ، والذى تحيط به قلنسوة من الجيبير ، لن ترى ابتسامة اكثر طفولية من ابتسامتها ، ولا اشارة أشد تناغما وتناسقا من اشاراتها ، ولاصوتا أشد موسيقية من صوتها .

وقد اتخذت جرترود أسلوبها فى السلوك ، وطريقتها فى الكلام ،



ولهجتها ، لا فى الصوت فحسب ، بل فى التفكير ، وفى الكيان كله ايضا ، وكنت امازح كلا منهما بشأن هذا التشابه الذى تتعمد الا تلاحظه أى منهما ...

ولكم كان يطيب لى أن يتساح لى اطالة المكث بعض الشيء بقربهما ، وان اراهما وقد جلستا متقاربتين ، وقد اعتمدت جرترود بجبهتها على كتف صديقتها ، أو أسلمت احدى يديها بين كفى تلك الآنسة ، وراحتا تصغيان لى وانا أقرأ لهما شيئا من اشعار لامرتين ، أو هيجو . وكم كان يحلو لى أن اتأمل انعكاس هذه الأشعار على هاتين النفسين الصافيتين !

بل ان التلميذات الصغيرات انفسهن تتحرك مشاعرهن لهذا الشعر ، ذلك ان الأطفال يكتب لهم فى جو هذا السلام والمحبة ان ينموا بصورة غريبة وان يتقدموا بصورة ملحوظة .

وقد ابتسمت فى البداية عندما تحدثت الآنسة لويز عن وجوب تعليمهن الرقص ، لدواعى الصحة والمتعة معا ، بيد انى أعجب اليوم كثيرا بما بلغته حركاتهن الايقاعية من رشاقة لا يستطعن — وا أسفاه — ان يقدرن مداها .

ومع هذا تقنعنى لويز دى لا « م ... » بأنهن يدركن عن طريق عضلاتهن تناغم حركاتهن التى لايرينها بعيونهن . وتشترك جرترود فى هذه الرقصات برشاقة ساحرة ، وهى فضلا عن هذا تجد فيها اعظم متعة . وفى بعض الأحيان كانت لويز دى لا « م ... » هى التى تشارك فى لعب هؤلاء الصغيرات ، على حين تجلس جرترود الى البيانو ... فتقدمها فى العزف مذهل ، وهى التى تتولى الآن العزف على الأرغن فى الكنيسة كل يوم احد ، وتؤدى ارتجالات قصيرة على سبيل التمهيد للتراتيل .

وتأتى جرترود كل يوم احد لتناول الغداء معنا ، فيتلقاها اطفالى بسرور ، رغم اطراد الاختلاف بين اذواقهم وأذواقها . ولم تعد اميلى تبدى عصبية متطرفة ، وهكذا يتم تناول الطعام بغير منغصات . ثم تقوم الأسرة كلها بعد ذلك باصطحاب جرترود الى دار

« لاجرانج » ، حيث يتناول الجميع وجبة خفيفة هناك . وانه عندئذ لحفل حقيقى ينعم به أطفالى الذين تتحفهم لويز بالحلوى . بل ان اميلى نفسها تتأثر بحسن رعايتها ، وتنبسط أساريرها ، وتبدو كمن استردت شبابها . واعتقد انها ستجد عناء فى التخلص فيما بعد من هذه الوقفة فى مسار حياتها المضجر .

١٨ مايو

الآن وقد عادت الأيام ذات الجو الجميل ، تسنى لى أن أخرج مع جرترود . وهو ما لم يتيسر لى منذ زمن طويل (لأنه حدثت اخيرا نوبات سقوط الثلج ، بحيث ظلت الطرق حتى الأيام الأخيرة فى حالة فظيعة مرهوبة) . وكذلك لم يتح لى منذ زمن طويل أن أجد نفسى منفردا بها .

ومشينا بخطا سريعة ، وقد توردت وجنتاها بفعل الهواء المتجدد الطلق الذى كان يبعثر بلا انقطاع شعرها الأشقر على محياها . ولما صرنا بمحاذاة منابت الطحلب التقطت لها بضع أعواد من الخيزان المزهرة ، ودسست اعوادها اللدنة تحت قلسنوتها ثم جدلتهـــا مع خصلات شعرها كى اثبتها فى مكانها فلا يتلاعب بها الهواء ...

ولم نكن قد تحدثنا بعد فى شىء تقريبا ، لفرط دهشـــتنا من وجودنا اخيرا معا بمفردنا ، عندما التفتت جرترود نحوى بوجهها ، وسألتنى فجأة :

ـ اتعتقد ان جاك لم يزل يحبنى ؟

فأجبتها على الفور قائلا :

ـ لقد اتخذ قراره بالتخلى عنك .

فعادت تسألنى :

ـ ولـكن أتعتقد أنه يعرف انك تحبنى ؟ ..

ومنذ محادثة الصيف الماضى التى سردتها فى هـــذه المذكرات ، انقضت (لدهشتى) ستة أشهر لم تذكر فيهـــا أدنى كلمة حب فيما بيننا ، ولم نكن ننفرد قط كما قلت ، وكان ذلك خيرا ...

وقد جعلت كلمات سؤال جرترود قلبى يدق بشدة ، حتى أننى أضطررت الى الابطاء فى سيرنا بعض الشىء . وهتفت قائلا

ـ ولـكن الجميع ياجرترود يعرفون أنى أحبك !

ولم ينطل عليها هذا القول ...

ــ لا . لا . ليس هذا جواب ما سألتك عنه .

وبعد برهة صمت ، استطردت خافضة الرأس :

ــ خالتي اميلي تعرف ذلك ، وانا أعرف ان هذا يحزنها .

فاحتججت على قولها بصوت مضعضع :

ــ انها حزينة بدون هذا ، فالحزن جزء من مزاجها الخاص

فقالت بشيء من نفاد الصبر :

ــ أوه ! انك تسعى دائما الى تطميني . ولكني لا احرص على الطمأنينة . وثمة أمور كثيرة اعلم انك لا تعرفني بها ، خوفا من اقلاقي أو تكدير صفوي أو ايلامي . فما أكثر ما لا اعرفه ، بحيث انه أحيانا ...

وغدا صوتها يميل الى الخفوت باطراد ، ثم كفت عن الكلام كمن خانتها انفاسها . فالتقطت آخر ما تفوهت به وسألتها :

ــ بحيث انه أحيانا ...

فاستطردت بأسى واضح :

ــ بحيث انه أحيانا يبدو لي ان السعادة التي ادين لك بها قائمة على جهلي .

ــ ولكن ياجرترود ...

ــ كلا . دعني أقل لك : انه لا رغبة لي في سعادة من هذا القبيل . واعلم اني لا ... اني لا احرص على السعادة ، وافضل عليها المعرفة . فهناك أمور كثيرة ، أمور محزنة قطعا ، لا استطيع أن أراها ، ولكن ليس من حقك أن تدعني جاهلة بها . وقد أطلت التفكير والروية خلال شهور الشتاء هذه ، وصرت أخشى الا يكون العالم بأسره بمثل هذا الجمال الذي جعلتني أعتقده فيه أيها الراعي ، بل هو بعيد عن هذا المستوى من الجمال بعدا كبيرا .

فاعترضت على قولها وانا أشعر بالخوف ، لأن اندفاعات وسورات أفكارها أخافتني ، وحاولت تحويل تفكيرها عن هذا



الاتجاه وأنا أشعر فى الوقت نفسه باليأس من نجاح محاولتى :

ــ أجل ان الانسان كثيرا ما شوه جمال الأرض وحوله الى قبح.

ويبـــدو انها كانت تنتظر سماع هذه الـكلمات من فمى ، لأنها انقضت عليها وتشبثت بها وكأنها حلقـــة تتم بها سلسلة حججها ، وصاحت :

ــ بالضبط ! لهذا أريد أن أتأكد من اننى لا أضيف من عندى شيئا الى ما هو موجود من الشر !

وواصلنـــا السير بعد ذلك فترة طويلة بخطا سريعة جدا ، فى صمت . وكل ما كنت خليقا أن اقوله لها كان يرتطم ســلفا بما احس انها كانت تفكر فيه ، فكنت اخشى أن أستثير عبارة قد يتوقف عليها مصير كلينا .

ولما فكرت فيما كان قد قاله لى الدكتور مارتن ، من انه قد يتسنى رد حاسة الابصار اليها ، استولى على قلبى كرب شديد الوطـــأة ...

وأخيرا استأنفت هى الـكلام قائلة :

ــ كنت أريد أن أوجه اليك سؤالا ، بيد انى لا أدرى كيف أصوغه ...

وكانت ، يقينا ، تستنجد بكل ما أوتيت من شجاعة كى تلقى بسؤالها ، كما كنت انا أيضا أستنجد بكل شجاعتى كى أصـــغى اليه ولكن أنى لى ان اتبنأ بالسؤال الذى يعذبها :

ــ أيولد أطفال العمياء عميانا بالضرورة ؟

ولست ادرى على أينا كان هذا الحديث اثقل وطأة واشـــد جورا ، أما وقد وجهت سؤالها فقد تعين علينا أن نمضى فى هذا الحديث ، فقلت لها :

ــ لا ياجرترود ، الا فى حالات خاصة جدا ، وليس هناك أى سبب يدعو الى أن يولدوا عميانا .

فسرى عنها تسرية شديدة . وكنت أريد أن أسألها بدورى لماذا

وجهت الى هذا السؤال ، ولكنى لم اجد الشجاعة ، واستطردت فى تعثر :

ـ ولكن ياجرترود ، لابد للمراة من أن تتزوج كى تنجب اطفالا ...

ـ لا تقل هذا ايها الراعى ، فانا اعرف ان هذا غير صحيح .

فقلت لها محتجا :

ـ انما قلت لك ما يليق ان اقوله لك... ولكن قوانين الطبيعة تسمح فعلا بما تحرمه قوانين البشر وشريعة الله .

ـ ولكنك كثيرا ما قلت لى ان شريعة الله هى بعينها شريعة الحب .

ـ ان الحب بذلك المعنى ليس هو الحب الذى يسمى ايضا الرحمة او الاحسان .

ـ احبك لى اذن على سبيل الرحمة ؟

ـ تعرفين تمام المعرفة انه ليس كذلك ياجرترود .

ـ اذن انت تعترف بأن حبنا خارج على شريعة الله أو قانونه ؟

ـ ماذا تريدين أن تقولى ؟

ـ اوه ! انت تعرف جيدا ماذا اعنى ، وما كان ينبغى أن اكون انا التى تتكلم فى هذا الشأن .

وعبثا حاولت أن اروغ ، وكان قلبى يدق وانا ارى حججى تولى الادبار وتتبدد اشتاتا . وفى ذهول هتفت قائلا :

ـ جرترود ... اترين ان حبك آثم ؟

فقالت مصححة :

ـ بل قل حبنا... وانى لأقول لنفسى انه ينبغى أن اراه كذلك.

ـ اذن ؟

وفوجئت بما احسسته فى صوتى من ضراعة ، واردفت هى بلا توقف :

ـ الا انى لا استطيع ان اكف عن حبك .

* * *

حدث هذا كله بالأمس . وقد ترددت فى كتابته فى اول الامر..

ولم أعد أدرى كيف أختتمت النزهة . فقـــد كنا نسير بخطا متسارعة كأننا نبغي الهرب ، وكنت قابضا على ذراعها مضمومة الى ضما شديداً .

وقد غادرت روحي جسمي ، بحيث بدا لي أن أهون حصاة على الطريق يمكن أن تلقى بنا متدحرجين على الأرض .

١٩ مايو

عاد مارتن هـذا الصـباح . من الممكن رد بصر جرترود اليها بجراحة . هذا ما أكده «رو» وطلب أن يعهد اليه بها بعض الوقت. ولا يسعني أن أعارض هذا ، ومع ذلك طلبت ــ بخساسة ــ فرصة للتفكير ، كي أهيئها برفق ...

كان ينبغي أن يثب فؤادي من شدة الفرح ، بيد اني احسه يزداد ثقلا تحت وطأة كرب لايوصف .

ان قلبي لا يطاوعني ، بل يخذلني كلما فكرت انني لابد أن أصارح جرترود بأن بصرها يمكن أن يرتد اليها ...

١٩ مايو ليلا

رأيت جرترود ، ولـكننى لم اكلمها . لم اجد احدا هذا المساء فى « لاجرانج » فى الصالون ، فصعدت الى حجرتها . وكنا وحدنا.

لقد ضممتها الى طويلا ، ولم تبدر منها حركة واحدة للدفاع او التأبى ، ولما رفعت جبينها الى ، التقت شفاهنا ...

٢١ مايو

امن اجلنا يارب جعلت الليل عميقا كل هذا العمق ، وجميلا كل هذا الجمال ؟ امن اجلى هكذا جعلته ؟ الهواء دافىء ، ومن نافذتى المفتوحة يدخل ضياء القمر وأسمع سكون السماوات الهائل . يا للعبادة الغامضة التى يذوب فيها قلبى ازاء الخليقة بأسرها ، فى نشوة خالية من كل كلام . لم أعد أستطيع الصلاة الا بهيام ووله . وان كان هناك حد للحب ، فهذا الحد ليس منك ياربى ، بل من البشر ! ومهما بدا حبى آثما فى عيون البشر ، قل لى يارب انه فى عينيك مقدس !

انى أحاول أن أعلو فوق فكرة الخطيئة ، ولكن الخطيئة تبدو لى شيئا لا يطاق ، ولا أستطيع البتة التخلى عن المسيح . كلا ! لا اقبل ان أرتكب الخطيئة فى حبى لجرترود . ولا أستطيع أن أنتزع هذا الحب من قلبى الا بانتزاع قلبى نفسه .

ولم هذا ؟

لو لم أكن أحبها ، لوجب أن أحبها شفقة عليها . والكف عن حبها بمثابة الخيانة لها ، لأنها بحاجة الى حبى ...

ربى ! لم أعد أعرف ... لم أعد أعرف سواك ـ أرشدنى . وانه ليبدو لى أحيانا انى أغوص فى الظلمات ، وان الابصار الذى سيردونه اليها سينزع منى بصرى .

* * *

عادت جرترود بالأمس الى مستشفى لوزان ، الذى لن تغادره الا بعد عشرين يوما . وأنا أنتظر عودتها بمنتهى التوجس . ومارتن هو الذى سيعيدها الينا . وقد جعلتنى أعدها الا أسعى لرؤيتها حتى ذلك الأوان .



٢٢ مايو

خطـــاب من مارتن : الجراحة نجحت .

الحمد لله !

٢٤ مايو

ان تفكيرى فى حتميــــة رؤيتها اياى ، وهى التى ظلت حتى الآن تحبنى من غير أن ترانى ... هذا التفكير يسبب لى ضيقا لايطاق.

اتراها ستعرفنى ؟ هانذا للمرة الأولى فى حياتى أسأل المرايا فى هم وقلق لا حـــد لهما . فماذا يصير من أمرى ان أحسست ان نظرتها أقل حفاوة بى من قلبها ، وأقل حبا ؟

ربى ! يخيل الى أحيانا انى بحاجة الى حبها كى أحبك !

٢٧ مايو

اتاحت لى زيادة فى اعمالي تفوق المعتاد أن أقضى هـذه الأيام الاخيرة بدون نفاد صبر شديد ، وكل مشغلة يمكن أن تنتزعنى من نفسى فهى بركة ، ولـكن صـورتها تتعقبنى طول النهـار ، ومن خلال كل شيء .

انها غدا موعد عودتها . واميلى ــ التى لم تظهر لى طوال هـذا الاسبوع الا افضل الجوانب فى طبعها ويبدو انها حرصت على أن تنسينى غيابها ــ تستعد مع الاطفال للاحتفال بعودتها .

٢٨ مايو

اجتهد جاسبار وشارلوت فى قطف ما استطاعا العثور عليه من الأزهـار فى الغابات والمروج . والعجوز روزالى تقوم بصنع فطيرة هائلة تزينها سارة بما لا أدرى من زخارف الورق المذهب . فنحن فى انتظار وصولها عند ظهر اليوم .

وانا أكتب هذه السطور الآن كى استنفد هذا الانتظار ، الساعة الآن الحادية عشرة . وفى كل لحظة ارفع رأسى وأرنو صـــوب الطريق الذى يجب أن تسلـكه عربة مارتن عند قدومها ، وأكبح نفسى عن الذهاب للقائهما ، فالأفضل ، ورعاية لأميلى ، الا يـكون لقائى لها منفصـــلا .

قلبى يثب فى صدرى ...

آه ! ها هما قادمان !

٢٨ مساء

يا للظلام المقيت الذى أغوص فيه !

الرحمة ياربى ! الرحمة ! انى متنازل عن حبى اياها ، ولـكنك ــ سبحانك ؟ ــ لا تسمح بموتها !

* * *

ما كان أخلقنى اذن بالخوف ! ما الذى صنعته جرترود ؟ بل ماذا كانت تريد أن تصنع ؟ اميلى وسارة قالتا لى أنهما صحبتاها حتى باب « لاجرانج » ، حيث كانت الآنسة دى لا « م ... » فى انتظارها . لقد أرادت اذن أن تعود للخروج ... فماذا جرى؟

انى أجتهـــد فى تنظيم أفـكارى بعض الشىء . والروايات التى قيلت لى غير مفهومة ، أو متناقضة . وكل شىء يختلط فى راسى ... فقـــد أعادها منذ قليل بستانى الآنسة دى لا « م ... » فاقدة الوعى الى « لاجرانج » ، ويقول انه رآها تســـير بمحاذاة النهر ، ثم تعبر قنطرة الحديقة ، ثم تنحنى ، ثم تختفى . ولكنه لم يدرك فى البداية انها سقطت ، ولذا لم يسارع اليها كما كان ينبغى . وقد وجدها قرب الهويس الصغير ، حيث كان التيـــار قد حملها الى هناك .

ولما رأيتها بعد ذلك بقليل ، لم تكن قد استردت وعيهـا بعـد ، أو على الأصح كانت قد غابت عن وعيها مرة أخرى ، لأنها قـــد ثابت لرشدها لحظة بفضل ما بذل لها من العناية .

والدكتور مارتن ــ الذى لم يكن بحمد الله قد رحل بعد ــ لم يستطع تفسير هـــذا الضرب من الذهول والخمود اللذين تغوص فيهما جرترود ، وكأنها لا تسمع شيئا ، أو كأنها فرضت الصمت على نفسها . وتنفسها لم يزل عسيرا ، ويخشى مارتن أن تـكون

مصابة بالتهاب رئوى . لذا وضع لها طبابة خردل وكاسات هواء ، ووعد بالعودة لعيادتها غدا .

كان الخطأ الاكبر تركها وقتا اطول مما ينبغى فى ثيابها المبللة ، وقد اتجهت كل جهودهم الى محاولة انعاشـــها ، فماء النهر بارد كالثلج ، وتذهب الآنسة دى لا « م ... » — وهى الوحيدة التى استطاعت أن تحصل من فمها على بضع كلمات — الى انها أرادت ان تقطف بعض الأزهار المعروفة باسم « آذان الفأر » ، والتى تنمو بغزارة فى هذا الجانب من النهر . ولما كانت لم تزل تفتقر الى البراعة فى قياس المسافات ، أو لأنها خالت بساط الأزهار الكافى أرضا صلبة ، لذا زلت قدمها فجأة ...

ليتنى استطيع ان اصدق هذا ! وان ما جرى لا يعدو أن يكون حادثا عارضا ، اذن لارتفع عن كاهل روحى عبء رهيب !

لقـــد ظلت ابتسامتها الغريبة طوال الغداء البهيج لا تفارقها ، ولشد ما أقلقتنى . فهى ابتسامة مغتصبة لم اعهدها لديها قط ، ولـكنى اجتهدت ان أقنع نفسى بأنها ابتسامة نظرتها الجديدة : ابتسامة بدت كما لو كانت تنهمر من عينيها على وجهها كما تنهمر الدموع . وبالقياس اليها كان مرح الآخرين المبتـــذل يسوءنى ، فهى لم تشارك فى المرح ! فكأنما قد اكتشفت سرا كانت خليقـــة بلا شك أن تفضى به الى لو اننى كنت بمفردى معها . ولم تـــكد تقول شيئا ، بيد اننا لم ندهش لذلك ، لأن العهد بها ان تـــكون صامتة فى الغالب عندما تكون مع النـــــاس ، ولا سيما اذا كان عددهم كبيرا .

ربى ! انى اضرع اليك ان تسمح لى بأن اكلمها . فما أحوجنى الى ان أعرف ، والا فكيف أواصــــل الحيــــاة ؟ .. ولئن كانت قد حاولت مفارقة الحياة ، افـكان ذلك لأنها عرفت ؟ وماذا عرفت ؟ ما الذى عرفته فروعك ياصديقتى ؟ ما الذى أخفيته عنك ، فلما رأيته فجأة ألفيته مميتا ؟



لقد امضيت أكثر من ساعتين عند فراشـــها ، لا يفارق طرفى جبينها وخديها الشاحبين وأجفانها الرقيقة المطبقة على أساها الذى لا يحيط به وصف ، وشعرها الذى لم يزل مبتلا شبيها بأعشاب الماء ، وقد انتشر حولها فوق الوسادة ، أتسمع انفاسها المتقطعة المكروبة ...

٢٩ مايو

استدعتنى الآنسة لويز هذا الصباح ، وانا اهم بالتوجه الى « لاجرانج » ، فجرترود قد خرجت أخيرا من حالة الخمود بعد أن قضت ليلة تكاد تكون هادئة . وابتسمت لى عندما دخلت الحجرة ، وأومأت الى ان آتى وأجلس على رأس سريرها . ولم اجرؤ أن اسألها ، ولاريب فى انها كانت تخشى اسئلتى ، لانها قالت لى على الفور ، وكأنها تريد بهذا أن تتجنب كل افاضة :

ـ بماذا تسمى تلك الأزهار الصغيرة الزرقاء التى أردت أن اقطفها من فوق صفحة النهر ، ولونها بلون السماء ؟ انك أمهر منى ، فهل لك ان تصنع لى منها طاقة ؟ سأحتفظ بها هناك ، بالقرب من فراشى ...

وآلمنى المرح المصطنع فى صوتها ، وقد ادركت هذا بلا شك ، لانها أردفت بمزيد من الجد :

ـ لا أستطيع أن اتحدث اليك هذا الصباح ، لأنى مجهدة جدا. اذهب واقطف لى هذه الأزهار، من فضلك... وعد بسرعة.

ولما حملت اليها بعد زهاء الساعة طاقة من تلك الأزهارالمعروفة باسم « آذان الفأر » ، قالت لى الآنسة لويز ان جرترود اخلدت للراحة من جديد ، ولن تتسنى لها رؤيتى قبل حلول المساء .

وقد رأيتها هذا المساء ، وقد استوت شبه جالسة ، متكئة على وسائد مكدسة من خلفها فوق الفراش ، وقد تجمع شعرها مضفورا فوق جبينها مختلطا بالأزهار التى حملتها اليها فى الصباح.

وكانت محمومة بلا ريب ... وبدت مكروبة جدا . واحتفظت فى يدها الملتهبة باليد التى مددتها اليها ، وظللت واقفا أمامها ، وقالت :

ـ لابد لى أن أدلى لك باعتراف أيها الراعى ، لأنى أخاف الليلة

ان أموت . لقد كذبت عليك هذا الصباح ... لم اسقط وانا اقطف الأزهار... اتراك تصفح عنى ان قلت لك انى أردت أن اقتل نفسى ؟

وجثوت على ركبتي قرب سريرها ، مع استبقاء يدها الواهنة فى يدى ، ولكنها خلصتها من قبضتى وشرعت تداعب بها جبينى، على حين دسست فى الأغطية وجهى كى اخفى عنها دموعى ، واخمد صوت انتحابى .

وعندئذ أردفت برقة وحنان قائلة :

ــ ايسوءك هذا جدا ؟

ولما وجدتنى لا اجيبها بشىء قالت :

ــ ياصديقى . ياصديقى ، هأنت ذا ترى اننى احتل مكانا اكبر مما ينبغى فى فؤادك وفى حياتك . وهذا ما بدا لى على الفور عندما عدت الى قربك ، أو تراءى لى على الأقل ان المكان الذى كنت اشغله انما هو مكان امرأة اخرى ، وان ذلك يسبب لها الحزن والأسى . وجريمتى انى لم اشعر بهذا من قبل ، أو على الأقل ــ لأنى كنت اعرف هذا جيدا من قبل ــ انى تركتك تحبنى على كل حال . ولما رأيت وجهها فجأة ، ورأيت عليه امارات كل هذا الحزن والأسى ، لم اعد اطيق مجرد التفكير فى ان هذا الأسى كله من صنعى ... لا . لا .. لا تلم نفسك على شىء ، بل دعنى أرحل ، وأعد انت اليها البهجة .

وكفت يدها عن مداعبة جبينى ، فأمسكت بهذه اليد وغمرتها بالقبلات والدموع ، ولكنها خلصتها من قبضتى بنفاد صبر ، واستولى عليها كرب جديد .

ــ ليس هذا ما كنت أريد أن اقول . كلا . ليس هذا ما اريد قوله ...

ورأيت العرق يبلل جبينها ، ثم خفضت جفنيها وأبقت عينيها مغلقتين برهة ، كأنما تريد أن تستجمع أفكارها وتركزها ، أو كأنها تريد أن تستعيد حالة عماها الأولى ، وقالت بصوت بدا

متراخيا ينم على يأس ، ثم لم يلبث أن ارتفع عندما فتحت عينيها ، الى أن بلغ غاية الحيوية والتدفق :

ــ عندما وهبتمونى الابصار ، انفتحت عيناى على عالم أجمل من كل ما كنت قد حلمت انه يمكن أن يكون . أجل ، حقيقة ، لم أكن أتخيل النهار بهذه الوضاحة ، والهواء بهذا اللمعان ، والسماء بهذه الرحابة . ولكنى أيضا لم أكن أتخيل جباه البشر ضخمة العظام على هذا النحو . فهل تدرى ماذا بدا لى لأول وهلة عندما دخلت بيتك ..؟ آه لابد مع هذا أن أصارحك بذلك . كان أول ما رأيته خطؤنا . خطيئتنا . كلا ! لا تحتج . تذكر قول السيد المسيح : « لو كنتم عميانا لكنتم بلا خطيئة». أما الآن ، فانى أبصر . انهض أيها الراعى ، واجلس هنا بقربى ، ولا تقاطعنى ... فى الفترة التى قضيتها بالمستشفى كنت اقطع الوقت بالقراءة ، أو على الأصح جعلتهم يطالعون لى فقرات من التوراة لم يكن لى بها عهد من قبل ، لأنك لم تكن قرأتها لى قط . واذكر آية على لسان القديس باولس ، ظللت أكررها لنفسى يوما بطوله : « وفيما يتعلق بى ، لما كنت من قبل بلا ناموس ، كنت احيا ، اما حين جاءت الوصية فقد بعثت الخطيئة حية ، أما أنا فمت » .

وكانت تتكلم بحماسة بالغة ، وبصوت عال جداً ، حتى لكأنها تصرخ وهى تنطق بهذه الكلمات الأخيرة ، حتى اننى تحرجت خشية أن يسمعها أحد فى الخارج ، ثم أغمضت عينيها مرة أخرى، وكررت ، كأنما تناجى نفسها ، تلك الكلمات الأخيرة بما يشبه التمتمة :

ــ بعثت للخطيئة حية ، أما أنا فمت .

وارتجفت أنا ، وقد استولت على قلبى برودة الذعر ، وأردت أن احول تفكيرها الى وجهة أخرى ، فسألتها :

ــ من الذى قرأ لك هذه الآيات ؟

فأجابتنى وهى تفتح عينيها وترمقنى بنظرات نافذة :



ــ جاك ... أعرفت أنه اعتنق الكثلكة ؟

وكان هذا اشد مما يطاق ، وهممت أن اتوسل اليها كي تسكت ، ولكنها كانت قد استطردت قائلة :

ــ ياصديقى ، سأسبب لك الكثير من الألم ، ولكن ينبغى الا يبقى بيننا شائبة كذب . عندما رأيت جاك ادركت فجأة انك لم تكن أحببته ، بل كان هو ! كان له بالضبط محياك ، اعنى المحيا الذى تخيلته لك ... آه ! لماذا جعلتنى أصده ؟ كنت خليقة أن أتزوجه .

فهتفت فى يأس :

ــ ولم يزل هــــــذا فى وســـعك ياجرترود ...

فقالت بحدة بالغة :

ــ لقد انخرط فى سلك الرهبنــــــــة ...

ثم أخذت شهقاتها تهزها هزا وقالت متنهدة :

ــ آه ! كنت اريد ان اعترف له ... وهأنت ترى انه لم يعد امامى ما أصنعه سوى أن اموت ... أحس بالظمأ ... ناد من فضلك أحدا ، أكاد أختنق . دعنى وحدى . آه ! كنت آمل أن أجد شيئا من العزاء فى كلامى معك . فارقنى . لنفترق . لم أعد اطيق ان اراك .

وتركتها . ناديت الآنســـة دى لا « م ... » كى تحل محلى بقربها ، لأن اضطرابها الشديد ملأني بالخوف الشديد ، واقتنعت ان وجودى معها يزيد حالتها خطورة . ورجوت الآنسة أن تبعث الى من يخبرنى ان زادت حالتها سوءا ...

٣٠ مايو

وا أسفاه ! لم يقدر لى أن أراها بعد ذلك الا نائمة . ففى هذا الصباح ، عند شروق الشمس أسلمت الروح ، بعد ليلة نزع واعياء . وقد ابلغت الآنسة دى لا « م ... » جاك النبأ ببرقية ، كطلب جرترود فى لحظاتها الأخيرة ، فوصل بعد النهاية ببضع ساعات . وقد لامنا بقسوة لانى لم أستدع لها قسيسا كاثوليكيا قبل فوات الأوان . ولكن كيف كان يتسنى لى هذا وانا أجهل ان جرترود كانت قد غيرت مذهبها اثناء اقامتها فى لوزان ، بضغط منه ولا ريب . واخبرنى فى آن واحد باعتناقه وجرترود الكثلكة ، وهكذا فارقنى فى وقت واحد هذان الكائنان . وبدا لى انهما وقد فرقتهما اثناء الحياة قررا الفرار منى معا كى يتحدا فى الله ولكنى اقول لنفسى ان قرار جاك يدخل فيه عنصر التفكير اكثر مما هو بدافع الحب . فقد قال لى :

ـ لا يليق بى يا ابى أن اتهمك ، ولكن زلتك هى التى ارشدتنى وهدتنى .

* * *

وبعد رحيل جاك ، ركعت قرب اميلى ، وطلبت اليها أن تصلى من أجلى ، لانى بحاجة الى عونها . فقلت ببساطة : « يا أبانا الذى .... » ، بيد انها جعلت بين الآيات لحظات صمت طويلة ملأناها بالضراعة .

كنت أريد أن ابكى ، ولكنى احسست قلبى أشد جدبا من الصحراء ...

١٩١٣

محاولة حب

قصة رمزية



أندريه جيد



الدكتور نظمي لوقا

دار الهلال

الى فرنسيس جام ...

« الرغبة أشبه بلهب خاطف للابصـــار ،
وكل مايمسه يتحول الى رماد ... الى تراب
خفيف الوزن تكفى لتبديده لفحـــة هـــواء
هينة ... فخليق بنا ألا نفكر الا فيما هو
خالد » .

كالديرون ـ
(الحياة حلم)

ليست كتبنا تصويرا أو سردا بالغ الصدق لذواتنا ، بل هي من باب أولى رغباتنا الشاكية ، وتمنينا لحياة أخرى حرمت علينـــا الى الأبد ولجميع حركاتنا المستحيلة .

وإني لأكتب ها هنا حلما كان يزعج فـكرى أكثر مما ينبغى ، ويطالب بالخروج الى حيز الوجود ، فقد كنت أريد به لنفسى تفتحا أكمل . كنت آمل ان أكون سعيدا ، كانما لا هم لى ســـــوى السعادة ، وكانما الماضى لاينتصر علينا دوما ، وكانما الحياة ليست نسيجا من تعود ما فيها من أسى ، وكانما الغد ليس امتـــدادا للأمس ، وكانما روحى لا تصبو اليوم فعلا وتتلفت صوب دراساتها المعتادة ، متى تخلصت من حلمها هـــذا .

فكل كتاب ان هو — بعد — الا محاولة عملية مؤجلة .

تمهيد

ما من شيء قطعا خليق أن يحول بينى وبين ادراك ما أشتهى ، لا قوانين البشر الثقيلة الوطأة ، ولا المخاوف ، ولا الحياء ، ولا الندم ، ولا احترامى للذاتى ، ولا احلامى ، ولا انت أيها الموت الكئيب ، ولا الفزع مما وراء القبر ... بل الكبرياء وحدها هى التى تمنعنى : الكبرياء ازاء شيء بالغ القوة ، فتدعونى أن أكون أقوى منه ، وأقهره . بيد ان أفراح مثل هذا النصر المتغطرس ليس أحلى ولا أطيب من الاستسلام لك أيتها الرغبات ، بحيث تقهريننى بلا صراع أو مقاومة .

* * *

عندما أقبل الربيع هذا العام ، عذبتنى حلاوته ، وصيرت الرغبات وحدتى أليمة ، فخرجت صبحا الى الحقول . وظلت الشمس ساطعة طول النهارعلى السهل المترامى ، فمشيت قدما نحوالسعادة.

وقلت فى نفسى انه توجد — ولا ريب — أراض أخرى غير هذه المستنقعات القاحلة التى سقت اليها روحى لارتيادها ، فحتى اذن يتسنى لى أن أبتعد عن أفكارى الحزينة الواجمة ، الأنعم فى الشمس مكتمل الأفراح ، وانسى الأمس وأنسى معه العقائد العقيمة ، وأعانق السعادة التى ستأتينى عناقا حارا ، بلا تحرج ، وبلاخوف؟

ولم أستطع أن أعود للبيت ذاك المساء ، لما داعب خيالى من المزعجات والمقلقات الجديدة التى لا تطاق ومشيت نحو الغابات ، حيث كانت تضيع فيها أحزانى مرارا كثيرة من قبل .

وجاء الليل ، وضوء القمر ، وكانت الغابة هادئة ساكنة ، وقد امتلأت بظلال رائعة . وارتجفت الرياح ، واستيقظت طيور الليل ، فدخلت دربا عميقا كانت رماله تحت قدمى لامعة ، فأرشدخطواتى هذا البياض المتواصل . وفيما بين الأغصان المتباعدة ، عندما

كانت الريح تهز الأشجار ، كان المرء يرى طافيا محلقا فوق ذلك الدرب ضبابا لا تقبض عليه اليد . وعندما خضلت الأنداء أوراق الشجر فى منتصف الليل ، فاح العبير ، وامست الغابة عاشقة .
وكانت للشجر وسوسـة وحفيف ، وكل الظلال تتناوح وتصنع ايقاعا رشيقا ، والأزهار الـكبيرة تتراقص ، وتتطاير منها حبـوب اللقاح ، فى غبار أخف من الضباب . وسرى تحت الأغصـان فرح خفى هدهد روحى ، وانتظرت ... وناحت طيور الليـل ، ثم صمت كل شيء . الطبيعة تستجمع روحها قبـل بزوغ الفجر ، وهدات سورة الفرح وذابت وحدتى فى الليل الشاحب الأنيس ...

« تراب خفيف تكفي لتبريده
لفحة هـــواء هينة ... »

– ١ –

وجاء الفجر ، ومحملا بالأزهار خرج لوقا من الغابة التى لم تزل رهن الظلام ، وهو يرتعد شيئا ما تحت وطأة رطوبة الصبـــاح الباكر ، وجلس على صخور ربوة فى انتظـــار شروق الشـــمس . وكانت تمتد أمام ناظريه مرجة رطبة من الأزهار المتباينة الألوان والمـاء اللامع الذى يتصاعد منه البخار . طفق لوقا ينتظر الهنـاء كله ، واثقا ، وهو يخاله سيهبط عليه كما يحط قفير طـائر من النحل ... وكان الفجر يرتجف بحبور لانهائى ، والربيع الوليـــد كأنه ابتسامة الحياة الطلقة . وترددت فى الجو أغانى وأناشـــيد ، وبرزت أمامه حلقة من الفتيات .

ورحن وسط العشب الندى ، وشعرهن لم يزل مشعثا من اثر النوم ، يقطفن الأزهار ، رافعات أذيالهن على هيئة السلال ، فبدت أقدامهن عارية وهن يرقصن ، ثم لم يلبثن حتى سئمن الرقص، فهبطن الى قاع المرج ، صوب الينابيع كى يغتسلن ، وينظرن فيهـا الى وجوههن ، ويتأهبن لمسرات النهار .

وعندما تفرقن بعد ذلك ، تسيت كل واحدة منهن صواحبها .

وعادت راشيل وحيدة شاردة اللب ، وجمعت الأزهار الساقطة على الأرض ، ثم انحنت كمن تهم بقطف غيرها ، كيلا ترى لوقا وهو يقترب منها . وجعلت تقطف كل أنواع الزهور النابتـــة فى المروج ، وحمل لوقا زهر الـكثبان والخزامى البنفسجية . واقترب كثيرا من موضع راشيل ، التى كانت حينئذ تجدل الأزهار . واراد لوقا ــ ولـكنه لم يجسر ــ أن يضم ازهـــاره الى الطـبـاقة التى تضفرها راشيل ، وفجأة القى بها عند قدميها ، وهو يقول :

ـ هذه ازهار الغابة القاتمة ، جمعتها من الظل ، لأجلك ، عندما برزت لى . وقد لبثت الليل بطوله ابحث عنها . وانت جميلة كالربيع فى هذا العام ، واصفر منى سنا ايضا . وقد رأيت هذا الصباح قدميك العاريتين ، وانت مع صواحبك ، ولم أجسر على الدنو منك ، وهأنت هنا وحدك الآن . فخذى ازهارى وتعالى ، ارجوك ! وليعلم كل منا الآخر الافراح الساحرة .

وابتسمت راشيل مصغية له باهتمام . وأمسك لوقا بيدها ، ومعا عادا ادراجهما ...

* * *

وانقضى النهار فى الألعاب والضحكات . ورجع لوقا وحده عند حلول المساء . وجاءه الليل ، ولم يواته النوم ، وما أكثر ما غادر فراشه وقد اشتد شعوره بالحر ، وراح يتمشى فى حجرته ، أو يطل من نافذته المفتوحة ، متمنيا لو كان أشد شبابا ، وأكثر جمالا ، وفى حسبانه ان الحب بين انسانين يستمد بهاءه من جسديهما . وظل لوقا يشتهى راشيل طوال ليلته . وعند بزوغ الصباح اسرع اليها .

وكان درب من الليلق يفضى الى مسكنها ، ثم تتلوه حديقة ملآنة بالورد ، مسيجة بسور منخفض . ولأول وهلة يسمع لوقا صوت راشيل وهى تغنى ، فظل واقفا هناك حتى المساء ، ثم عاد فى اليوم التالى .. وصار يعود الى هناك كل يوم : ينطلق اليها منذ يقظته ، فيجد راشيل فى انتظاره باسمة .

ومرت ايام ... ولوقا لا يتجاسر على شىء ، فكانت راشيل البادئة بالاستسلام : وذات صباح لم يجدها ظلال الأشجار المعهودة ، فقرر لوقا أن يصعد الى حجرتها ...

وكانت راشيل جالسة فوق فراشها ، وشعرها مشعث ، شبه عارية ، لا يغطيها الا شال كاد يسقط كله عنها . وكانت تنتظره قطعا . وجاء لوقا ، واحمر وجهه ، وابتسم ، ولكنه عندما رأى ساقيها البديعتين شديدى الرقة ، شعر بهشاشتها ، فركع

امامها ، ولثم قدميها الجميلتين ، ثم رد الشال عليها فسترها به .

وكان لوقا يتمنى الحب ، بيـــد انه كان يفزع من الوصـــال الجسدى فزعه من أمر مهلك . فيا للتربية التعسة التى ربيناها ، وانها لتربية تجعلنا نحس الشهوة دامية فاجعة أومبتئسة موحشة ، مع انها مجيدة صافية من الأكدار . ولـكن لوقا لم يكن هكذا ... فتملك تلك المرأة .

وكيف لى بوصف فرحهما الآن، الا بوصف ما كانت عليه الطبيعة الجذلانة من حولهما ، مشـــاركة لهما ومسهمة معهما . لم تعـــد أفكارهما ذات أهمية ، فلا هم لهما الا بأن يكونا سعيدين ، فلم تكن أسئلتهما الا أمانى ، وما كانت اجاباتها الا اشباعا وشفاء غليل . وتعلما أسرار الجسد ، وصارت خلواتهما كل يوم متزايدة الخفاء .

وذات مساء ، اذ هم بمغادرتها طبقا لعادته ، قالت له :

ـ لماذا تنصرف ؟ ان كان انصرافك لتذهب الى لقاء حب آخر، فهـــذا شىء حسن ، اذهب اذن ، فلست غيرى . أما ان لم يكن ذهابك لهذا السبب ، فابق . تعال ، فمضجعى يدعوك اليه ..

ومنذ ذلك المساء ، صار يبقى معها فى كل ليلة .

* * *

وكان الهواء قد غدا اشـــد دفئا ، وامست الليالى من الجمال بحيث كفا عن اغلاق النافذة ، فكانا ينامان هكذا فى ضـــوء القمر . ولمـــا كانت شجرة ورد حافلة بالأزهار تصـــعد من أرض الحديقة وتحيط بالنافذة ، فقد احتبسا عددا من أغصانها داخل الحجرة ، وكانا ينامان بسبب ما يمارسانه من الحب الى ساعة متأخرة جدا ، ويستيقظان يقظة السكارى ، وفى جسديهما اثر من ارهاق الليل ، فيغتسلان فى ماء النبع الصافى ، الذى يتدفق فى الحديقة . وكان لوقا ينظر الى راشيل وهى تستحم عارية تحت أوراق الشجر ، ثم ينطلقان لنزهاتهما .

وكثيراماكانا ينتظران حلول المساء ، جالسين فىالعشب لايصنعان شيئا ، ويتطلعـــان الى الشمس فى انحدارها ، حتى اذا ما رق



النسيم وذهبت الحرارة عادا ببطء الى مسكنهما . ولم يكن البحر بعيدا . وأثناء حركات المد والجذر القوية أثناء الليل كان يصل الى أسماعهما لغط الأمواج واهنا . وكانا ينزلان أحيانا الى الشاطىء عن طريق واد ضـيق متعرج ، لا يجرى فيه ماء ، تتعانق فيه الأشجار الشائكة وتسـفو فيه الريح الرمال ، ثم ينفرج الوادى منفتحا على الشاطىء ، فاذا خليج لا زورق فيه ولا سفينة ، مع أن البحر فيه هادىء ...

وفى المواجهـة تقريبا ، على الضفة المتعرجة التى تتراءى على البعد وكأنها جزيرة ،كان يرى الناظر مايشبه سياجا فخما لبستان كبير ، وكان هذا السياج يلمع فى المساء كأنه الذهب الوهاج ...

وسرعان ما عجزت راشيل عن العثـور على محارات فى رمال الشاطىء ، وانتابهما الملل أمام البحر ...

وغير بعيد من هناك ايضا كانت توجد قرية ، بيد انهما لم يمرا بها كثيرا بسبب من فيها من الفقراء ...

وحينما يسقط المطر ، او يغلبهما التراخى ، لم يكونا يذهبان ولو الى المرعى ، وتستلقى راشيل ، ويجلس لوقا عند قدميها ، وترجوه ان يحكى لها حكاية ، قائلة له :

ــ تكلم ، فانى الآن مصغية لك . ولا تكف عن الكلام ان غفوت. حدثنى عن الحدائق فى الربيع ، وعن مدارجها ورباها العالية ...

* * *

وحدثها لوقا عن المشـارف ، وأشجار الكستناء بصفوفها المتلاحقة !

ــ ... فى الصباح تأتى اليها فتيات صغيرات ليلعبن ويرقصن فى حلقاتهن ، والشمس لم تزل بعد شـديدة الانخفاض فوق السهول ، فليس للأشجار ظل حينذاك ... وبعد قليـل جاءت شابات هادئات فدخلن الى أحواض الأزهار وأعددن اكاليل وطاقات ، مثل التى كنت تضفرينها ياراشيل . وفى الظهيرة حضر ازواج من فتية وفتيات ... وكانت الشمس قد صارت فوق الأشجار، وظللت

الدروب قباب الأغصان الملتفة الكثيفة ، وكان السائرون هناك لايتكلمون الا همسا . وبعد قليل خف الوهج ، وبدا السهل كأنما افترشه الصيف وتفشى فيه ، فاتكأ هناك المتنزهون مستندين الى الاسيجة والأفاريز ، وجلست جماعات من النساء ، وشرع بعضهن يقسمن ثلاث من الصوف تحبكها الأخريات .. وانقضت الساعات . وعند انصراف المدارس حضر التلاميذ ، وراح الأطفال يلعبون البلى. وحل المساء، فصار المتنزهون فرادى ، وأن ظل بعضهم متجمعين ، يتحدثون عن اليوم الذى انقضى . وهبطت ظلال المشارف والربى على السهل ، وعلى الطرف الأقصى للأفق ، فى سماء صافية صحو ، طلع القمر بضيائه الرقيق الصافى .

وصمت لوقا ونظر الى راشيل ، التى نامت على لغط الفاظه ...

وقاما بنزهة أطول ، فقد كان الربيع فى أخرياته . وبعد أن عبرا التل حيث يقوم بيتهما ، وجدا فى منتصف المنحدر ، من الناحية الأخرى ، قناة ، يحف بها صف من أشجار الحور ، وعلى امتداده درب ، تواصل بعده الأرض انحدارها .

وتمكنا من عبور القناة على قنطرة هناك ، فدعتهما الشمس الحارقة الى السير على الضفة . وكانت الحرارة تتصاعد موجاتها من قاع الوادى ، وللهواء زفيف فوق الحقول . وعن بعد يبدو طريق عريض ، يثور غباره كلما مرت فوقه عجلة ، فرأيا الصيف فى السهل رأى العين . وكان الدرب ، والشجر ، والقناة ، تتحدى كلها تخوم التل ومنعطفاته ، فلزما ضفة القناة . وعلى الضفة الأخرى منها رأيا نهاية غابة صغيرة . وكان هذا كل شىء .

وسارا على هذا النهج فترة طويلة جدا ، ولما رأيا الطريق لايؤذن بانتهاء أبدا ، وقد نالا من السير كفايتهما ، عادوا أدراجهما.

- ٢ -

سيدتى : لك انت سأروى هذه القصة . فأنت تعلمين ان حبنا أصابه التيه فى أرض المستنقعات ، وأنت التى شسكوت فيما مضى حتى لقد وجدت عناء فى الابتسام . هذه القصة لك : فقد بحثت فيها عما يمنحه الحب ، فان كنت لم أجد فيها الا السأم ، فالخطأ خطئى : فأنت قد أفقتنى من الحلم بالسعادة . فما أقصر عمر الفرح فى كتاب ، وما أسرع ما يروى . وما أشد ابتذال الابتسامة الخالية من الرذيلة ومن السوداوية والأسى ، فلننظر فى أمر حب الآخرين ، ذلك الحب الذى يمنحهم السعادة .

لقد تحابا لوقا وراشيل ، وحفاظا على وحدة السرد أقول انهما لم يصنعا شيئا سوى هذا ، فلم يعرفا من السأم أو الملل الا ملل السعادة نفسه . وكان قطف الأزهار مشغلتهما الوحيدة التى لا تتغير ، ولم ينحيا الحب جانبا فى سبيل مسعى أبعد من ذلك ، وقلما تذوقا لوعة الانتظار . وانهما ليجهلان تلك الحركة التى تبعد عن المرء ما كان يتمنى بالذات أن يناله . - كما كنا نحن نصنع ، وا أسفاه ! ، ياسيدتى - خوفا من التملك وحبا للأسى والشجن . فكانا يقطفان على الفور الزهرة المشتهاة بأكملها ، غير مباليين أن تذبل سريعا فى أيديهما الدافئة . وطوبى لمن هم مثلهما يستطيعون ان يحبوا بغير حساب أو وعى . ولم يكادا يشعران بالنصب ، فليس الحب ولا الاثم هما المتعبان ، بل الندم عليهما هو المتعب . لذا قلما كانا يراجعان على صفحة الماء ماضى انفعالهما العابرة ، وكان جهلهما بالحزن هو بعينه ينبوع فرحهما ، فلم يكونا يتذكران سوى ما يمكن اعادته من القبلات وعناق الوصال، وعندئذ تسنح لهما لحظة تمتزج فيها حياتاهما امتزاجا حقيقيا. وتلك كانت آونة الانقلاب الصيفى ، حيث الجو تام الزرقة ، وحيث

الأغصان العالية من فوقهما فى ذروة رشاقتها ورقتها .

الصـــيف ! الصـــيف !

ينبغى التغنى بهذه الـــكلمة كما يتغنى بالمزامير .

السـاعة الخامسة . وقد نهضت (فها هو الفجر قـد لاح) وخرجت الى الحقول ... ولو علما بكل ما يوجد من الندى الفض فوق العشب ، وبعد المـاء البارد الذى تغتسل فيه أقدام الصباح المرتجفة ، وبالأشعة التى تشرق على الحقول ، وبما فى السـهل المنبسط من نشوة . ولو علما بما يستقبل به الفجر جميع النازلين الى العشب من البسمات ، لما بقيا غارقين فى النوم على ما أعتقد، ولـكن لوقا وراشيل مجهدان من قبلات الليل ، وهـذا الخمول الغرامى لعله يملأ أحلامهما بابتسامات تربو على ما يفيضـه الفجر على الحقول ...

* * *

ومع هذا خرجا ذات صبـاح ، ووصلا الى ذلك الوادى وتلك القناة نفسيهما ، اللذين كانا قد سارا على امتدادهما ذات يوم من أيام الربيع ، ولـكن بدلا من اجتياز التل ، دارا موازيين له فبلغـا الى موضع توازى فيه القناة النهر العريض ، وكانت القنـاة تجاور دربا لجر المراكب باللبان ، وعبرا المـاء على هويس هناك ، وسارا فى درب جر المراكب ، بحيث كانت القناة عن يمين ، والنهر عن شمال . وعلى الضفة الأخرى طريق آخر . وكانت هذه الطرق الخمسة تمتد متوازية فى الوادى الضـيق على مدى بصرهما .

وطالت نزهتهما فى ذلك النهار ، بيد انها خلت مما تشوق روايته .

* * *

وأرادا أن يريا شاطىء البحر مرة أخرى ، فهبطا اليه وجلسـا أمام البحر . وكانت أمواج عاصفة هبت أخيرا قد ألقت على الحصى أصدافا من أصداف القاع ، مع حطام ونتف من أعشـاب البحر المنتزعة من أغواره . ولم تزل الأمواج المنتفخة جلبة متصلة مذهلة.

وفجاة أحست راشيل القلق ، فقد شعرت بأن لوقا يفكر .وهبت

ريح اشد برودة من ذى قبل ، فانتابتهما رعدة ونهضا .

وكان لوقا يمشى فى المقدمة ، بسرعة فائقة . واجما بعض الشيء . وكانت هناك كتلة متلثمة وسوداء ، لعلها كانت وتدا بحريا ما ، او جزءا من حطام سفينة ، أو من أخشاب الجزائر وأمامها وقفا كلاهما ...

وبعد ذلك نظر لوقا الى البحر ، وبدافع الحاجة ، أو الغريزة ، اتكأت راشيل على لوقا ، وأمالت رأسها على كتفه ، وقد شعرت شعورا غامضا بالقلق يعتمل فى داخله مع التعطش الى المغامرة . وظلا واقفين ، وكانت الشمس بسبيلها الى الغروب ، غائصة فى الخليج ، فيما وراء المضيق الذى كان خط البحر اللانهائى يرى من بين قممه منسابا كمن يلوذ بالفرار .

وعلى حين كانت الشمس تغوص ، كانت اسيجة البستان المجهول ، كالقائم على جزيرة ، تتلقى الأشعة الغاربة ، وتلمع بصورة لايمكن تفسيرها ، وتوشك أن تكون خارقة للطبيعة : أو هكذا على الأقل بدت لهما ، حتى انه لم يقل أحدهما لصاحبه شيئا عن هذا ، فكل قضيب من قضب ذلك السياج كانت أشبه فى عينهما بالذهب منها بالفولاذ ، وكأن لالاءه نابع من ذاته ، من صميم معدنه ، أو ثمرة من ثمار الاسراف فى التلميع .

وأعجب ما فى الأمر ان الناظر يخيل اليه انه يرى فيما وراء السياج شيئا لا يمكنه أن يقول ما هو . وأحس لوقا وراشيل كلاهما ان صاحبه لا يجسر على الحديث عما يشعر به .

وفى طريق العودة وجدت راشيل على الرمل بيضة حبار هائلة سوداء لدنة ، على قسط من غرابة الشكل ، كأنما هذه الغرابة مقصودة ، بحيث وجدا لها من الأهمية لهما ما حفزهما على البحث عن سببها .

* * *

وتركت ذكرى هذا اليوم فى نفسيهما قلقا غامضا ، وبرغمهما كثيرا فكرا فى ذلك البستان المغلق فى مواجهة البحر ، والفيا نفسيهما

منجذبين اليه ، ومتسائلين عنه ، ولكن لا سفين تحت يدهما يقلهما اليه ، فقررا الانطلاق اليه ذات صباح ، متحدين السير بمحازاة السواحل ، الى ان يصلا اليه .

ونهضا قبل الفجر ، واخذا في السير . وكان الجو لم يزل رماديا رطبا ، فمشيا وكأنهما حاجان جادان : ساكتين ، متفكرين ، وقد صارت لهما غاية خارج نفسيهما ، شاعرين امام فضولهما انهما بصدد مهمة أو رسالة ...

ولكن حسبنا أن نقول هذا عنهما في هذا المقام ياسيدتي ، فهاهما يروقانا في حالهما هذا الجديد ...

ها هما يسيران غير مباليين حرارة النهار ، تقودهما «فكرة » ، لأن ما يخالجهما لم يعد مجرد رغبة أو شهوة . ولم تتذمر راشيل من الحصى الذى يتدحرج على امتداد الطريق ، ولا من الرمال المتحركة التى كانت تغوص فيها الأقدام ... وراحا يسيران فى الحصى حينا ، وعبر الحقول حينا آخر . وطورا يصعدان ضفة نهر الى ان يجدا قنطرة ، وطورا آخر يهبطانها ، ليعبرا الحقول مرة أخرى .

آه ! ها هما اخيرا قد وصلا الى اقدام السور ، وها هو البستان ! وللحيلولة دون الاقتراب منه ، كانت مياه البحر التى تمد خندقا محفوفا بالصخور يرتطم بأسفل الجدار وكأنها تنغلق عليه ، وقد امتد هذا الجدار على صورة سد أو جسر فى البحر ، بحيث لايرى المرء شيئا من هذه الجهة سوى قمة جيرية .

ومضيا قدما ، وانتهى الخندق ، فمشيا بمحاذاة البحر ، وكانت الشمس ثقيلة الوطأة ، والطريق يمتد امامهما ويطول ... فى الآونة التى ليس فيها للجدران ظل ، وعندئذ رأيا بابا صغيرا متواريا تقريبا تحت أشجار اللبلاب ، واستدار الجدار استدارة غير محسوسة ، واستدارت الشمس أيضا مع اقتراب النهار من ختامه ، وكأنها تتعقبهما ...

ومن فوق الجدار كانت الأغصان تبدو ، ولكن لا حركة فيها .



ومن داخل البستان ترامت الى أسماعهما أصوات ضحكات متصلة ، بيد أن نوافير المياه كثيرا ما تحاكى أصواتها أصداء الكلام.

وفجأة ألفيا نفسيهما أمام البحر ، فاستولى عليهما اكتئاب شديد ، وجلسا قليلا ، قبل أن يشرعا فى طريق العودة . وأمامهما ، وعلى الناحية الأخرى أيضا ترتفع قمة صخرية وتمتد فى البحر ، وتكمل الجدار الذى كانت مياه البحر ترتطم بأدناه فى خندق لا سبيل الى اجتيازه . وتغلغلت فيهما الكآبة ... فقد كانا على الخصوص متعبين من الرحلة ، وزاد فى شعورهما بالتعب انها تمخضت عن غير طائل . وكانت الشمس آخذة فى التوارى وراء البستان ، فسارا فى ظل الجدار الذى بدا لهما انه ينطوى على سر غامض . وخيل اليهما انهما يسمعان فى بعض الأحايين دمدمة تشبه النقر بالأصابع على الزجاج ، بيد ان هذا الصوت كان يختفى متى توقفا عن السير ، فبدا لهما انه ناجم عن خطوهما ...

وكان الليل قد خيم منذ أمد طويل حين عادا الى مسكنهما .

* * *

وفى اليوم التالى ، وهما مخلدان الى الراحة فى النهار ، قالت راشيل للوقا :

ـ حدثنى عن الفجر فى الصيف ، ما دام الخمول يمسكنى هنا بقربك .

وشرع لوقا يتكلم :

كان الوقت صيفا ، قبل بزوغ الفجر ، والطيور لم تغرد بعد ، ولم تكد الغابة تستيقظ ...

فقالت راشيل :

ـ أوه ! لم تكن غابة ، بل كان طريقا رحبا ظليلا ... والفجر يوشك أن يولد ... ولئن كانت الطيور لم تغرد بعد ، فلأن الوادى بالغ العمق ، والليل لم يزل ملكئا فيه ، بيد ان بواكير الضياء كانت تجلو للعين أعالى التلال بيضاء اللون ...

واستطرد لوقا قائلا :

ـ ... وصوب هذه الأضواء العالية توجه فارســـان مغامرين بنفسيهما ، وصوب الهضبة التى تشرف على ما حولها ، بعد أن قضيا الليل بطوله سائرين فى الوادى . وكانا صامتين عابسين ، بعد أن سارا فى الظل أمدا طويلا ، وكانت أشجار البلوط العالية التى تحف بالطريق الواسع من فوقهما تمد أغصانها . وجواداهما كانا يصعدان ببطء الطريق المســـتقيم الوعر الانحدار . واثنـــاء صعودهما كان الضياء يزداد من حولهما . واتضح النهار على الهضبة التى تحف بالطريق الواسع من فوقهما تمد أغصانها . وجواداهما الأول ويوازى قمة التل .

وتوقف الفارسان عن المسير ، وقال أحدهما :

ـ لنفترق يا أخى ، فالطريق الذى يدعو اليه أحدنا لا يدعو الآخر ، وشجاعتى الـكافية لا حاجة بها للاســـتعانة بشجاعة ، فحيث يكفى أحدنا ، يصبح الآخر لاجدوى منه .

فقال الآخر :

ـ وداعا يا أخى !

ثم أدار كل منهما ظهره لأخيه ، وذهب كل منهما فى طريقه سعيا وراء فتوحات فردية . وعندئذ استيقظت الطيـــنـــور جميعا ، وكثرت بينها ممارسات الغرام بين أوراق الشجر ، وكثر رفيف الهوام فى الهواء ، وكثر طنين النحل ، وتفتحت بين العشب والأزهار الجديدة التى يمتص النحل رحيقها ، وارتفعت فى الجو همهمات عذبة . وعن بعد ... حيث تنتهى الرؤية ، لم تـكن تشـــاهد الا أوراق أشـــجار ، أما فى الوهاد ، فى الوادى الذى خفت فيـــه الظلمة ، فتتناوح قمم الأشجار الشاهقة ، ومن أسفلها يخيم الضباب أوه ! لـكم يطيب لنا أن ننحنى هناك بشدة كى نرى الأيائل وهى هابطة لترد المـــاء !

فقالت راشـــــــيل :

ـ والفارســـــــان ؟

فقال لوقا :

ـ آه ! لندعهما وشأنهما ! ولنشغل أنفسنا بالطريق المشجر ؟ لقد حضرت اليه قرب الظهر جماعة من الشـــابات ، كن يسرن متشابكات الأيدى ، كما كنت تمشين مع صـــواحبك ... وكن يضحكن ... ثم أتى رجال يرتدون الحرير والمذهبات ، فجلســـوا كلهم يتحادثون ...

وانقضى النهار .. فسكتوا ، وامتد الظل فوق العشب الأثيث ، فنهضوا وذهبوا ليشاهدوا غروب الشمس ، وامتلأ الطريق المشجر بالتملق والهمهمات ، وتأهب كل شيء للـكرى ... ثم صمت كل شيء . وحل المساء ، وأخذت الأغصـــان تتناوح ، وبدت الجذوع الرمادية حافلة فى الظل بالأسرار ، وارتفع تغريد طائر من طيـــور الفسق ، وعندئذ تراءى فى بداية الليل فارسان عائدين ، يسير كل منهما نحو الآخر ، وقـــد بدأ الـكلال على جواديهما ، أما هما فـكانا منحنيين فوق سرجيهما ، وأشد عبوسا مما كانا فى الصباح لأن رحلتهما كانت بغير طائل .

ولما تقابلا من غير أن يفوها بكلمة ، ثم هبطا الدرب الذى يهبط التل ، غائصين فى الليل تحت الأغصـــــــــان .

فقالت راشيـــــــــل :

ـ لمـــاذا الرحيل اذن يا لوقا ، وفيم المسير . أو لست كل حيـــــــــاتى ؟

فقال لوقا :

ـ ولـكنك ياراشيل لست كل حياتى . فهناك أمور أخرى ..

- هـــذه القصة تسئمني ياسيدتي . وانت تعرفين انني ما صغت هذه العبارات لنفسي ، بل للآخرين . فقد أردت أن أروى علاقة الفصول بالروح . وبهذا تعين علينا أن نصل الى الخريف ، فلست احسب أن أتخلى عن أى مهمة شرعت فيها .

التقت روحانا ذات يوم ، ولأنهما كانا يقطفان الأزهار ، اعتقـد كل منهما انهما متشابهان ، فأخذ كل منهما بيـــد صاحبه ، وفى حسبانهما آنهما سيتمان الشوط معا . وفرقتهما امتدادات الماضى، فأطلقت يدَ كل منهما يد صـــاحبه ، لتتم كل روح منهما الطريق وحدها بسبب ذلك المـاضى . فـــراق ضرورى هو ، لأن المـاضى المتشابه هو الذى يستطيع وحده أن يجعل النفوس أشباها ، فكل شىء مستمر فى عالم الأرواح . وكذلك الحال دائما ، فهـــذا أمر نعرفه ياسيدتى ، نحن الذين نسيرمتوازين ولن نستطيع أن نتدانى.

هكذا اذن افترق لوقا وراشيل ، بعد ان امتزجت خطاهما يوما واحدا ، وبرهة واحدة ذات صيف . نقطة تماس واحدة ، وها هما الآن ينظر كل منهما فى اتجاه مختلف . فلوقا الجالس على الرمال عن كثب من الأمواج ، ينظر الى البحر ، أما راشيل فتنظر ناحية البر وأرباضه . وحاولا ، فى بعض اللحظات ، أن يستردا الحب الذى تتفكك عراه ، بيد انه كان لذة لا جـــديد فيها ، كان شيئا مستنفداً ، وكان لوقا سعيدا وهو يفكر فى الرحيل . فراشيـــل لم تعد تستبقيه . وعندما كانا يخرجان معا كانا يسيران وكل منهما غارق فى خواطره ، وأكاد أقول تفكيره الخاص ، ناظرا الى الأمام بدلا من النظر الى صاحبه .

لوقا لم يعد يحلم بالحب ، بيد أن حبهما ترك فيهما ما يشبـــه ذكرى عذوبة عظيمة ، أو ما يشبه عبير الأزهار الجميلة الذابلة ...



هو كل ما تبقى من طاقات الزهر وأكاليله ، ولـكن بدون أسى .
بدون أسى .

وفى بعض الأيام كانا يسيران هكذا ، شاردين ، بدون كلام ... وبتأثير الالوان البديعة التى اتخذتها أوراق الخريف ، ولها انعكاس رائع الجمال على وجه المـاء ، صـارا يفضلان الميـاه الراكدة ، ويتنزهان ببطء على ضفافها . وكانت الغابات رائعة رنانة بالأصداء ، والاوراق بتساقطها كانت تكشف صفحة الأفق . وصار لوقا يكثر من التفكير فى الحياة الرحيبة المترامية الأبعاد ــ وأقول هذا لأنى شخصيا أفكر فى هذا ، ولذا أحسبه لابد مفكر فيه !

سيدتى ! شد ما يسئمنى لوقا وراشيل ، فماذا عساى أن أقول لك عنهما بعد ؟

لقـد ارادا أن يعودا لرؤية البسـتان ذى الاسيجة الرائعة . وعثرا بالسير ملتزمين الجدار على ذلك الباب الصـغير المتوارى ، الذى كان من قبل مغلقا ــ وجـداه الآن مفتوحا ، فدخلا ، فاذا بذلك البستان مهجور ...

وما من شيء يمكن أن يكفى لتصوير بهاء تلك المماشى ، فقـد نثر الخريف نظام تلك المناطق المعشبة ، والاغصـان محطمة ، وقد غطت الحشـائش جميع الدروب ، وتفتحت أزهار هذه الحشائش ، واستشرى النجيل . ومشيا هناك صامتين ، عن كثب من الأيك المثقل بثمار حمراء ، وطيور مغردة حمر الأجياد والأطواق ...

لكم أحت بهاء الخريف !

وكانت هناك أرائك حجرية ، وتماثيل ، ثم انتصب أمامها بيت كبير، مغلق النوافذ بالمصاريع الخشبية ، وأبوابه مسدودة ...

وكانت فى البستان بقايا تذكر بأعيـاد واحتفالات ، وقد تدلت من العرائس فواكه تجاوز نضجها الحد ...

ولـما بدأ المساء يهبط ، عادا من حيث أتيا .

* * *

قالت راشيـــل :

ـ قص على حكاية الخريف ...

فقال لوقا :

ـ آه : الخريف هو الغابة بأسرها ، والبحيرة السمراء قرب الحافة . اليها تأتى الأيائل ، وتدوى أبواق الصيد .. تايوت ! تايوت ! وينبح سرب الكلاب ، فتفر الأيائل : هيا بنا نتنزه تحت الأشجار الباسقة ... الصيد فى أوج نشاطه ... ها هو يمر موكبه . أرأيت الصافنات الجياد ؟ صوت البوق يبتعد ، ويمعن فى الابتعاد وسط الغابات . هيا بنا لنرى البحيرة الهادئة ، التى يهبط عليها المساء ...

فقالت راشيل :

ـ قصتك سخيفة ... لم يعد الناس يقولون « الصافنات الجياد » ... وأنا لا أحب الطنطنة . هيا ننام .

وعندئذ تركها لوقا ، لأن النعاس لم يراوده بعد .

وبعد أمد قصير كان فراقهما .

وكان وداعا بلا دموع ، وبلا ابتسامات . بل كان هادئا وطبيعيا! لأن قصتهما كانت قد وصلت الى ختامها .

كانا يحلمان بأشياء جديدة ...

تعقيب

ها هو الخريف قد جاء ياسيدتي ، السماء تمطر ، والغابات ميتة ، والشتاء في طريقه للقدوم الينا . وانا افكر فيك ، وروحي متقدة ولكنها هادئة ، وانا جالس هنا قرب النار ، وكتبي بقربي . ووحيدا أفكر واصغي . أترانا نستأنف كذي قبل غرامياتنا الجميلة الحافلة بالأسرار ؟ انني سعيد ، فأنا اعيش ، وتخامرني افكار سامية .

لقد فرغت من سرد هذه الحكاية التي تسئمنا عليك ، وثمة الآن مهام كبيرة تدعونا اليها . واعلم أن هناك حالات غرق باهرة مجيدة في خضم الحياة الاوقيانوسي ، وهناك بحارة مفقودون ، وجزر ينبغي اكتشافها ، بيد اننا نظل عاكفين على كتبنا ، وتتجه رغائبنا صوب أعمال اضمن من هذه . واعلم ان هذا ما يجعلنا أسعد من سوانا من البشر .

بيد اني اشعر أحيانا بالاعياء من الدرس المتواصل أكثر مما ينبغي ، فأهبط نحو الغابة ، تحت المطر ، لأشاهد ختام الخريف . واعلم انني عند عودتي من هذه النزهة ، في بعض الأمسيات ، أجلس قرب النار اشبه بالسكران من السعادة بالحياة ، وأكاد انتحب من شدة النشوة ، شاعرا في أعماق فكري ان أعمالا لها خطرها تهيب بي أن أتمها . سأعمل ! سأعمل ! فأنا أحيا ... وأحب ما نحب هي الأعمال الصامتة : الشعر ، والتاريخ ، والدراما ... فهكذا نتجه الى الحياة ... على نحو ما تصنعين أنت يا أختي في تأملك أو اهتمامك القلق .

والآن أرحل ، وعليك أن تحلمي بما تتيحه الرحلة من الوان السعادة ...

ومع هذا ، كم كنت أحب ــ وقد اقبل الشتاء ــ أن نطيل

هـذا السرد معا ، فنرحل وحدنا ذات مساء الى احـدى مدن هولندا ، حيث تملأ الثلوج الشوارع ، وهم يكنسون فضول الجليد من فوق القنوات المتجمدة . وهناك كنت تتزحلقين على الثلج طويلا، معى ، الى أن نصـل الى أرباض الريف ، وبين الحقول كنا نرى الجليد وهو يتكون ، وتمتد صفحته البيضاء الى ما لانهاية ... وما أطيب أن نتنسم الهواء المثلوج .

ويقبل الليل ، الا أن الثلج يلمع فيه ... ونعود أدراجنـا . وفى الحجرة تـكونين بقربى ، حيث النـار مشـتعلة فى المدفأة ، والسـتائر مسدلة ، وتؤنسنا أفـكارنا ... وعنـدئذ تقولين لى يا أختى :

ــ ما من شيء يخلق به أن يحيد بنا عن طريقنا ، فلنعـانق الأشياء جميعا ونمر بها بلا توقف ، لأن غايتنا أبعد منها ، فينبغى الا ننخدع بها ، فهذه الأشياء عابرة تنقضى ، أما غايتنا فثـابتة ، ويجب أن نسير قدما حتى نبلغها . آه ! سـحقا لتلك النفوس البليدة التى تخال العقبات والحوائل غايات ! بل انها ليست حوائل وعقبـات ، لأنه يجب تخطيطها وتجاوزها ! غايتنا الوحيـدة هى « الله » ، ولن يغيب ذلك عن أنظارنا ، لأننا نراه من خـلال كل شيء . ومنذ الآن سـنسير اليه قدما ، فى درب مجيد ، مجيد بفضلنا وحدنا ، وعن يميننا أعمال الفن ، وعن يسارنا مشـاهد الطبيعة ، ومن أمامنا الطريق الذى ينبغى المضى فيه . ولنكن الآن روحين جميلتين جذلتين ، لأن دموعنا وحدها هى التى تنبت الأحزان والأسى من حولنا .

وأنت يا موضوعات رغائبنا وشهواتنا ، ما أشبهك بتلك النتوءات السريعة الزوال ، التى متى ضغطت عليها الأنامل لم يتبق منهـا الا رماد ... لا تلبث أن تذروه الرياح .

* * *

فانهضى يا رياح أفـكارى ... وبددى هـذا الرماد ...

صيف ١٨٩٣ — اندريه جيـد

روايات الهلال

تقدم فى العدد القادم . . .

حلم العم

بقلم الكاتب الكبير

دوستويفسكى

ترجمة العالم العربى الكبير

الدكتور سامى الدروبى

روايات الهلال

تقدم قريبا جدا

أغنية الموت

للكاتبة البوليسية الكبيرة

اجاثاكريستى

ترجمة

محمد عبد المنعم جلال

روايات الهلال

تقدم قريبا

روايات تاريخ الاسلام

الروايات التى انتظرها الكثيرون . . .

للكاتب

جرجي زيدان

في هـــذا العدد من روايات الهلال قصة طويلة ، واخـــرى قصيرة، وكل منهما نموذج للقصص النفسية الذى اشتهر بهاندريهجيد، وبرع فى تصوير ما يتنازع النفس الانسانية من العواطف والانفعالات ودفعات الحياة ، وكيف يحار بين الالتزام الخلقى ورغبات نفسه.
وبطل ((سيمفونية الرعاة)) راع - اى قس - بروتستنتىمتدينمتزوج محترم ، وقع فى حب حبيبـــه يتيمة عمياء يتولى تربيتها ، وخدعته نفسه الى أن صـــار الى مازق بين معتقداته وهواه . وهى مكتوبة على شكل مذكرات (شـــانها شان آلام فيرتر لجوته والمساكين لدستويفسكى) مما اتاحللمؤلف تتبع خلجاتالبطل النفسية واطوارها خطوة خطوة .
واما قصة ((محاولة حب)) فمنالنوع النفسىالرمزىفيه عمقالتحليل وأصالة الصدق ..
وقد ترجمهما بلغة سهلةواسلوب انيق شائق كاتب راسخ القدم فى الترجمة والفن الادبى ، هو الاستاذ الدكتور نظمى لوقا .

١٥ قرشا

